عبد الرزاق نوفل





ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للصحافة والطباعة والنشر

رئيس مجلس الإدارة
ومدير عام التحرير

أحمد شوقى القيبى

رئيس التحرير

أنور زعلوك

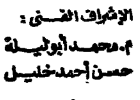
الإدارة: ٩٢ شارع قصر العينى - القاهرة

ت: [illegible]

تلكس دولى: ٢٥٧٤

ستظل القاهرة - دائما قلب العروبة والإسلام النابض.. تتبوأ مكانتها التاريخية والحضارية - فى عالم الفكر والثقافة والنشر !!

سكرتارية التحرير:
ثروت الشعراوى
أنور عبد الدايم
محمد يوسف السيد



الإشراف الفنى:
م. محمد أبوليلة
حسن أحمد خليل



إهـــــداء 2006
ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

التصوّف والطريق إليه

تأليف
عبد الرزاق نوفل

الطبعة الأولى

الشعب
[illegible]
[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

(ألاَ إنَّ أولِيَاءَ اللهِ لاَ خَوفٌ عَلَيهم ولاَ هُم يَحزَنون . الّذينَ آمنوا وكَانوا يَتَّقونَ . لَهمُ البُشرَى فى الحَيَاةِ الدُّنيا وَفى الآخِرَةِ لاَ تَبدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هوَ الفَوز العَظِيمُ)

(٦٢ ـ ٦٤ سورة يونس)

الإهداء

إلى كل نفس تواقة إلى ما هو أعلى

مقدمة

(وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنهم وَرَضوا عَنهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّات تَجرِي تَحتَهَا الأَنهَارُ خَالدِينَ فيهَا أَبدًا ذَلِكَ الفَوز العَظِيمُ) .

(١٠٠ سورة التوبة)

عندما يستمع شباب هذا الجيل إلى ما كان عليه الآباء والأجداد من السلف الصالح لايعتقدون فيما يروى عنهم إلا أنه على سبيل الحكاية أو لمجرد الإثارة .. وعندما تتداول الأوراق وتتناقل الألسنة حقائق قد وقعت فيهم .. وأمور قد صدقت منهم .. وآمنت بها الأجيال السابقة .. تستبد الحيرة في شأنها بأجيالنا الحاضرة .. وأي حيرة .. فإن ما وقع فيهم وما ظهر عليهم أمر يخالف ما نحن عليه .. إذ كيف يحس الإنسان عما عليه أخيه وبينهما سفر الأيام والليالي ؟ . بل كيف يسمع ما يتحدث به صاحبه وقد باعدت بينهما البلاد والقفار .. وكيف يعرف ما وقع لأخيه وبينهما الكثير الطويل من الأسفار؟

فهذا سيدنا عمر بن الخطاب يرتقي المنبر ليخطب صلاة الجمعة .. ويتوقف في وسط الخطبة وينظر بعيداً وينادي (ياسارية .. الجبل .. الجبل) ثم

يستمر في خطبته وكأن شيئاً ما حدث .. وبعد الصلاة يسأله سيدنا على رضى الله عنهما عن ذلك فيقول (لقد أحسست كأن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم وأنهم يمرون بجبل .. فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا وإن جاوزوه هلكوا فخرج منى هذا الكلام)

وبعد شهر من الزمان عاد المحاربون من المسلمين ليقول سارية لقد سمعت يومها صوتاً يشبه صوت عمر بن الخطاب ويصيح الجبل .. الجبل .. فعدلنا إليه ففتح الله علينا .

وفيما يروى عن الآباء والأجداد ما يجعل الإنسان يعتقد بوجود قوة خارقة لدى الكثرة منهم إلا أنها انحسرت في زماننا وقل عدد من يتمتع بها في أجيالنا .. وما من سبب إلا تغلب الجانب المادى للإنسان على الجانب الروحى .. فالإنسان يتكون من جسد مادى وهو من تراب وإلى تراب يندفع .. ومن روح من الله وإلى الله تهفو .. وترغب أن تقترب .. وأيهما تغلب كان الإنسان .. فكانت الأجيال السابقة لا تهتم بأجسادها قدر اهتمامها بأرواحها .. أما نحن فنكاد ننسى أرواحنا ونحرص على ملذات أجسادنا .. فأصبحنا نقيض ما كانوا .

لقد عرفوا التصوف وطلبوه .. فكان منهم ما كان وظهر منهم ما بان .. أما ما خفى من أمرهم فهو الأعظم والأخطر مما قد لا يصدقه الإنسان .. فلو عرف الناس لذة التصوف لجاهدوا أنفسهم فى سبيله ولو وصل الإنسان إلى أول طريقه ما رضى بغير الاستمرار فيه إلى نهايته .. وهيهات أن يصل .

والتصوف علم ومعرفة وعمل وعبادة .. وكل علم يعرف به الإنسان ربه فهو من سبيل التصوف .. وما من علم لو تدبر الإنسان ظاهره وباطنه إلا ويشير إلى المعرفة الكبرى والحقيقة الأولى .. وجود الله ووحدانيته .. وكل عمل يبذل الإنسان فيه كل جهده .. وعرقه ليحقق به خلافته لله فى أرضه .. فهو من طرق التصوف . وكل عبادة خالصة يقبل فيها الإنسان بقلبه ووجدانه .. ويخلى ما بداخله عما سوى الله .. فهى من التصوف ..

ولقد درست طويلا التصوف وقرأت طويلا عن أهله .. وأردت أن أسجل خلاصة ما وعيت لأعرضها عليك يا قارئى العزيز فلعلنا نسير سوياً فى الطريق ..

طريق الصدق والصادقين .. والله سبحانه وتعالى
أدعو أن يجعلنا ممن قال عنهم جل شأنه فى كتابه الكريم :

(قَالَ اللهُ هَذَا يَومُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدقُهُمْ لَهم جَنَّاتٌ
تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِى اللهُ عَنهم
وَرَضوا عَنهُ ذَلِكَ الفَوز العَظِيمُ) صدق الله العظيم .

[١١٩ سورة المائدة]

عبد الرزاق نوفل
٨٠ ش قصر العينى — القاهرة

التصوف ومتى بدأ ..

ورغم كثرة ما كتب عن التصوف .. فما أقل ما عرف عنه ..
ورغم التباين الواضح فيما كتب عن التصوف .. من مؤيدين أفرطوا في تأييده ومعارضين اشتدوا في نقده .. فما أقل الحقائق الأكيدة الأصيلة التي عرفت عن التصوف .. بل إن تعريف التصوف لم يصل فيه المجتهدون إلى قول متفق عليه ولفظ محدد له .. حتى لفظ التصوف اختلفت الآراء في أصلها .. وفيما تشير إليه .. فقيل أنها تشتق من لفظ « سوفيا » اليونانية والتي معناها الحكمة .. ويكون بذلك التصوف هو طلب الحكمة .. مهما كانت .. وأين كانت ..

وقيل أنها مشتقة من أهل الصفة وهم قوم من فقراء المسلمين أقعدتهم ظروفهم أيا كانت هذه الظروف عن السعي والكسب .. فأقاموا في صفة المسجد .. وهي مؤخرة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة .. لا يشغلهم أي أمر عن العبادة والاستغراق فيها .. إذا رزقوا أكلوا .. وإلا .. عبدوا .. فشبعوا .. وفي الحالتين .. شكروا .. وحمدوا .. وإذا جاءهم الماء شربوا .. وإذا حبس عنهم .. ذكروا من انحبسوا له .. فارتووا .. لا يسألون أحداً .. ولذلك يحسبهم الناس من الأغنياء .. فهم دائماً مع من بيده الأمر .. فكيف يطلبونه من غيره .. يتجلى نور الإيمان على وجوههم بعد أن فاضت به نفوسهم .. وأثر العبادة الحقة واضحاً على حالهم .. ظاهراً في سيماهم .. هؤلاء الذين قال عنهم القرآن الكريم :

(لِلفقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لَا يَستَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الأَرضِ يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعرِفُهم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسأَلُونَ النَّاسَ إِلحافًا) .

(٢٧٣ سورة البقرة)

وهناك قول آخر بأن لفظ التصوف .. هو من لبس الصوف .. فمن ارتدى الصوف عامداً لبسه .. قاصداً هدفه .. فقد تصوف .. ولبس الصوف كان علامة الزاهدين وأمارة العابدين .. وذلك على مر الأزمان . ولعل الرسل والأنبياء هم أول من سبقوا فى ارتداء الصوف إذ اشتغلوا جميعاً برعى الغنم .. وعن طريق استغراقهم الفكرى فى مكان الرعى الفسيح المادىء قبل بعثهم .. عرفوا الحقيقة .. زوال الحياة الدنيا مهما طالت .. فلا تبهرهم أنوارها .. ولا يقبلوا على متاعها .. وأنهم إلى الحياة الأخرى .. مهما بعدت .. فأقبلوا على زادها وعتادها .. بالزهد .. والعبادة .. فتركوا لذلك لبس اللين الناعم من الحرير .. إلى الخشن الجاف من الصوف .. وهو القريب منهم .. يحصلون عليهم من أغنامهم ويغزلونه بأيديهم .. ويرتدونه ستراً لعوراتهم .. وحفزاً لهممهم بما لا توفره من متعة أو راحة لأجسادهم .. ولذلك لبس كل الأنبياء والرسل الصوف .. وحذا البعض حذوهم .. فلبسوا الصوف .. وهكذا قيل صوف .. أى لبس الصوف ..

وقيل أن التصوف من الصفاء .. صفاء القلوب لربها .. وصفاء النفوس لخالقها .. وصفاء الأرواح لأصلها ..

والبعض قالوا أن التصوف هو الالتزام بالاتصاف بالصفات الحميدة التي أوردتها الأديان في رسالاتها . .

وقد يقال أنها من التصفية . . أي تصفية الإنسان : . فكراً ، عملا ويقيناً .. من كل ما هو غير الله سبحانه وتعالى حتى يصبح من عباد الله المخلصين .

وهكذا تختلف آراء العلماء والبحاث في أصل اسم التصوف . . وتعريفه . . بل إن كبار المتصوفة وأئمة الصوفية . . لم يتفقوا في أقوالهم عن التصوف على تعريف موحد له . . فقد قالوا عنه :

(التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق) .

معروف الكرخي

(التصوف أن تجرى على الصوفي أعمال لايعلمها إلا الحق . وأن يكون دائماً مع الحق على حال لايعلمها إلاهو) .

ابو سليمان الداراني

(الصوفي من صفا لله قلبه) .

بشر الحافي

(الصوفي من لايتعبه طلب ولايزعجه سلب) .

(ذو النون المصري)

(الصوفي لايكدره شيء ويصفو به كل شيء) .

(أبوتراب النخشبي

(التصوف اسم لثلاثة معان وهو الذى لايطفىء نور معرفته نور ورعه ولايتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أوالسنة ولاتحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله) ؛

(سرى السقطى)

(الذى يلزم الصوفى ثلاثة أشياء حفظ سره وأداء فرضه وصيانة فقره) ؛

(الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر) ؛

(سهل التسترى)

(التصوف ألا تملك شيئاً ولايملكك شىء) ؛

(سمنون المحب)

(التصوف ترك كل حظ النفس) ؛

(ليس التصوف رسوماً ولاعلوماً ولكنها أخلاق) ؛

(الصوفية هم الذين صفت أرواحهم فصاروا فى الصف الأول بين يدى الله) ؛

(الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا فى الصف الأول والدرجة العليا مع الحق فلما تركوا كل ما سوى الله صاروا لاما لكين ولامملوكين) ؛

(الصوفى من لايتعلق به شىء ولايتعلق بشىء) ؛

(أبو الحسين النورى)

(التصوف تصفية القلوب حتى لايعاودها ضعفها الذاتى ومفارقة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة نزوات النفس) .

(ماأخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى) .

(التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن اصطفى من كل ما سوى الله فهو الصوفى) .

(ابو القاسم الجنيد)

(التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار) .

(التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده) .

رويم بن احمد البغدادى

(التصوف التبرى عمن دونه والتخلى عمن سواه) .

(على بن سهل الاصفهانى)

(التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك والجلوس مع الله بلا هم) .

(الصوفى منقطع عن الخلق متصل بالحق) .

(الصوفى من لايرى فى الدارين مع الله غير الله) .

(التصوف أن يكون الصوفى كما كان قبل أن يكون) .

ابو بكر الشبلى

(لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولاصلاة وإنما أدرك بسخاء النفس وسلامة الصدر والنصح للأمة) .

(الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق) .

(الفضيل بن عياض)

(التصوف خلو الأسرار مما عنه بد وتعلقها بما ليس منه بد) .

ابو العباس بن مسروقة الطوسى

(التصوف تجريد القلب لله واحتقار ما سواه) .

(التصوف عمل مبنى على العلم وقطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله .. وتحليته بذكر الله) .

الغزالى

وهكذا تستمر الأقوال عن التصوف .. ولاشك أن كل هذه التعاريف التى وضعها المتصوفة صحيحة حيث وضعت بعد ممارستهم حياة التصوف .. وأنها تشير إلى ما يعتقدونه فى أمر التصوف وما رأوه فيه .. وما ساروا به إليه .. وبذلك تكون حقيقة التصوف هو كل هذه التعاريف وأمثالها مجتمعة .. وإذا تدبرنا هذه التعاريف ودرسنا ما تدل عليه .. وإذا رجعنا إلى أحوال الصوفية وما ظهر منهم .. أمكننا أن نصل إلى بعض الحقائق عن التصوف والصوفية والمتصوفة .. فليس التصوف أحاديث أو فلسفة .. إذ ما أقل ما تركه

المتصوفون من كلام .. وكل ما تركوه إنما إشارات .. وتنبيهات .. وردود باقتضاب .. وإجابات بلا إسهاب .. ولكنه عمل .. وعمل شاق يهدف إلى تحرير الروح من الأغلال المادية والقيود الجسدية .. بعيداً .. بعيداً جداً .. عن المكان .. وتتخطى .. حاجز الزمان .. متجهة بنورها وحبها وشوقها .. إلى الله ..

وليس التصوف بوهم أوخيال .. يسيطر على إنسان قد جاع وعطش زهداً في عرض الدنيا فيرى ما يحسبه صحيحاً وهو ليس كذلك .. أو يرسم له خياله .. ما قد يكون حلماً .. أو أمنية .. أو يتراءى له متوهماً في شطحاته ما لا يراه غيره ممن مارسوا أو لم يمارسوا حياة التصوف .. فالتصوف علم يصل به الإنسان إلى معرفة الحقيقة .. وإذا ما وصل بعلمه وعمله .. عاش حياة الحقيقة .. الحياة التي لايصفها إلا من عاشها .. ولايفهمها إلا من مارسها .. ولو للحظات خاطفة .. في ساعات من حياة المجاهدة .. ولقد بحث في أمر التصوف علماء كبار من أهل العلوم الطبيعية .. ومنهم أطباء يعتبرون قادة في الطب والجراحة ووصلوا فيه إلى حقائق .. هي ما تنبعث من أقوال المتصوفه عن التصوف فيقول الدكتور ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة في كتابه الإنسان هذا المجهول ما نصه (قلما نلاحظ عند الرجال الحديثين ظواهر النشاط الصوفي؛ إن الشعور الصوفي حتى في أكثر صوره بداوة شعور فريد وهو أكثر تفرداً أيضاً من الشعور الخلقي ومع هذا فهو واحد من أوجه نشاطنا الجوهرية .. طبع الوحي الديني البشرية بطابع أعمق أثراً من

طابع الفكر الفلسفي ؛ كان الدين في المدنية القديمة عماد الأسرة والمجتمع . وما تزال أرض أوروبا تغص بالكاتدرائيات وبقايا المعابد التي أقامها عليها أسلافنا ؛ والحق أننا اليوم ندرك مغزاها بصعوبة ؛ فأكثر المتحضرين لايرون في الكنائس سوى متاحف تثوى فيها الديانات الدائرة . يدلنا موقف السياح الذين يدنسون كاتدرائيات أوروبا إلى أي حد محت الحياة الحديثة الشعور الديني : نبذت أكثر الديانات النشاط الصوفي ، لا بل وعدا النسيان على مدلوله وربما كان لهذا النسيان صلة بتردي الكنائس ذلك أن حياة دين من الأديان تتوقف على مراكز النشاط النسكي التي يمكنه إيجادها ، ومع هذا فقد ظل الشعور الديني في الحياة الحديثة وظيفة ضرورية للشعور عند بعض الأفراد وهو في الوقت الحاضر يعود إلى الظهور بين الرجال المثقفين ثقافة عالية : وهناك ظاهرة غريبة هي أن الرهبنات الكبرى ليس لديها في أديرتها أمكنة كافية لقبول الشبان الراغبين في ممارسة الحياة الروحية من طريق النسك والتصوف الذي يتخذ صوراً مختلفة : إنه في حالته البدائية الأولى تعطش ونزوع مبهم نحو سلطان يعلو فوق الصور المادية والعقلية في عالمنا : أو هو نوع من الصلاة غير المنطوقة أو البحث عن جمال أكمل من جمال الفن وجمال العلم إنه قريب من النشاط الجمالي : يقود الشعور بالجمال إلى النشاط الصوفي ومن ناحية أخرى تتحد الطقوس الدينية بمختلف صور الفن ، من ذلك أن الترنيم يتحول بسهولة إلى صلاة : إن الجمال الذي ينشده الصوفي أغنى من جمال الفنان وأبعد منه عن التعريف والتحديد ؛ إنه بدون صورة على الإطلاق ولايمكن

التعبير عنه بأى لغة : . يختفى فى أشياء العالم المنظور ويبدو لقلة من الناس وهو يتطلب تسامى الروح نحو كائن هو الذى ينبثق منه كل شيء . . نحو سلطان أو مركز قوى . . هو الله . . إن التصوف ينطوى فى أسمى حالاته على طرائق غاية فى التقدم والنضج ورياضة روحية صادقة . . يتطلب أولا وقبل كل شيء ممارسة الزهد ويستحيل ولوجه دون مران زهدى استحالة بلوغ الإنسان مرتبة الرياضى دون مران بدنى ورياضة النفس على الزهد شاقة ولهذا كانت قلة من الناس هى التى تجد فى نفسها الشجاعة للسير فى طريق الصوفية . هذا الطريق الوعر يقتضى المرتحل فيه التجرد من ذاته ومن أمور هذه الدنيا وإذا هو بعد ذلك فى ظلمة الليل البهيم : . إنه يستشعر آلام حياة التطهير بينما ينحى ضعفه وتفاهة شأنه ملتمساً نعمة الله . . إنه ينفصل من نفسه شيئاً فشيئاً وتصبح صلاته تأملا ويدخل فى الحياة النورانية . . إنه يعجز عن وصف مايرى . . إن روحه تنطلق بعيداً وراء المكان والزمان وتتصل بشيء يجل عن الوصف : لقد شارف الحياة الاتحادية : : إنه يتأمل الله ويعمل معه . . فى حياة كبار المتصوفة جميعاً تتعاقب نفس المراحل . . وعلينا أن نقبل تجربتهم كما تلقى إلينا : : إن الذين عاشوا حياة الصلاة وحدهم الذين يمكنهم أن يقدروا هذه التجربة : : والواقع أن نشدان الله أمر شخصى محض إذ ينزع الإنسان بفضل نشاط معين فى شعوره نحو حقيقة غير منظورة تكمن فى العالم المادى وتمتد وراءه . : وهو يندفع فى أجرأ مغامرة يمكن أن يتصدى لها إنسان : : ولكن ينبغى ألا نتساءل هل التجربة الصوفية حقيقة أوغير حقيقة هل هى إيحاء ذاتى أو وهم أوهى رحلة

ترتحلها الروح فيما وراء عالمنا تتصل خلالها بحقيقة عليا . علينا أن نقتنع بمفهوم عمل عليا . . إنها فعالة بذاتها فهى تعطى من يمارسها ما يريد: تعطيه التجرد . . والسلام . . والقوة . . والحب . . إنها حقيقة . . لأنها تعطيه الله) .

وهكذا يتأكد أمر التصوف ويتقرر أنه حقيقة واقعة وتجربة عملية بعد أن ناقشتها الدراسات العلمية الحديثة وتابعتها البحوث المعملية والطبية ووصلت كلها إلى تأييد كامل ومطلق لكل ماذاع عن المتصوفة وعرف عن التصوف والصوفية .

أما حياة التصوف : : وما يصل إليه المتصوف . . فإن كانت الألفاظ والعبارات التى تشترك فيها أقوالهم وتتردد دائماً على ألسنتهم تشير إلى القرب والمشاهدة والحب والفناء . . فإن الحقيقة هى أعمق من هذه الألفاظ المتداولة التى نرددها دون أن يعلم حقيقتها إلا الصوفى الذى وصل إليها . . لأن التصوف تجربة روحية تعتمد على الروح لا على الجسد وتختص بالوجدان والشعور . . لا بالعقل والمنطق . . والفارق كبير جداً بين قرب الجسد وقرب الروح : . بين الرؤية بالبصر والمشاهدة بالبصيرة . . أما الحب والفناء فيه فهو من عمل الروح . . وميدانه هو الوجدان والشعور وليس للعقل أو الجسد فيه أى ممارسة : : وبذلك قيل أن التصوف هو أقرب الطرق إلى الله وعليه فيمكن بالسلوك فى أى طريق يصل الإنسان إلى الله : : أن يصبح الإنسان متصوفاً بلا تجارب عملية . . طالما وصل إلى ما يهدف إليه التصوف :

أما أين ومتى بدأ التصوف .. فلقد اختلفت الآراء فيها كثيراً .. فمن قائل أن التصوف نشأ فى الشرق الإسلامى وبدأ بقيام حركة الزهد التى مارسها المسلمون بعد أن تفهموا آيات القرآن الكريم واستوعبوا ماجاء بها بخصوص الجنة والنار والثواب والعقاب .. وأنه تحدد ووضح فى القرن الثالث الهجرى ..

وغيره يقول بأنه بدأ فى بلاد المسيحية بحركة الرهبنة التى عاشها رهبانهم فى الأديرة .

وهناك أقوال ترجع التصوف إلى حياة التعبد التى عاشها بعض أحبار اليهود فى أيامهم الأولى .

أما من يقولون باشتقاق التصوف من لفظ سوفيا اليونانية فرأيهم أن التصوف بدأ فى عهد الحكمة القديمة ببلاد اليونان ..

وهناك آراء بأن التصوف قديم جداً .. فمنها ما تقول أنه بدأ وانتشر من الشرق الأقصى فى الصين القديمة .. وغيرها تقول بأنه وجد فى القرون الغابرة فى بلاد الهند .

والحقيقة أن المتدبر لتعاريف التصوف المختلفة ليجد أنها كلها تهدف إلى سلوك الطريق إلى الله ومحاولة الاتصال به .. وحبه قدر الطاقة وجهد الاستطاعة .. إذ أن حبه كما يجب أمر فوق جهد الطاقة وأكبر من حد الاستطاعة .. فمتى بدأ الإنسان يسلك الطريق إلى الله .. ويحبه ؟ ألم يبدأ ذلك ببداية خلق الإنسان ؟

إن آدم أول الخلق فى لحظات خلقه الأولى تلقى من ربه العلم والمعرفة بالنص الشريف :

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسمَاءِ هؤُلَاءِ إن كُنتُم صَادِقِينَ) .

(٣١ سورة البقرة)

وشاهد تكريم الله له حيث أمر سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود له وذلك بنص الآية الكريمة :

(وَإِذْ قلنَا لِلمَلَائِكَةِ اسجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبلِيسَ أَبَى وَاستَكبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ) .

(٣٤ سورة البقرة)

وهيأ سبحانه وتعالى له الحياة الكريمة السعيدة فى الجنة إذ تقول آيات القرآن الكريم :

(إنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعرَى . وَأَنَّكَ لاَ تَظمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضحَى) .

(١١٨ — ١١٩ سورة طه)

ثم بعد أن أذنب تاب إلى الله توبة صادقة خالصة مقبولة حيث تلقى سبيلها من الله جل شأنه وذلك بالنص الشريف :

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) .

(٣٧ سورة البقرة)

ألا يكون آدم بذلك قد سلك طريقه إلى الله ؟ : بعد علم ومعرفة ؟؟ واستغفار وتوبة : :

وهؤلاء الأنبياء والرسل : : ألم يصطفهم الله سبحانه وتعالى من الناس برسالاته ؟ . إذ يقول سبحانه وتعالى فى قرآنه الكريم :

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) .

(٧٥ سورة الحج)

وألم يسلكوا الطريق إلى الله ويحبوله ويخلصون له العبادة ؟ وكل دعوتهم لأقوامهم إنما كانت لحب الله وسلوك الطريق إليه بالعبادة وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) .

(٣٦ سورة النحل)

فهذا سيدنا نوح ينادى ربه فيستجيب له : : فكيف كان النداء ؟؟ وعلى أى درجة من الإخلاص كان النداء : : وعلى أى درجة من الصفاء كان القلب الذى جأر بالدعاء : : وهتف بالنداء : : إذ تقول آيات القرآن الكريم :

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) .

(٧٥ سورة الصافات)

ثم تقرر آيات القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد كتب سلامه وبركاته عليه بالنص الشريف :

(قِيلَ يَا نُوحُ اهبِط بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيكَ) .

(٤٨ سورة هود)

فأى سبيل إلى الله أقرب مما اتخذه سيدنا نوح حيث وصل به إلى ماكان عليه . .

وسيدنا ابراهيم الذى يقول عنه ربه بالنص الكريم :

(واذكُرْ فى الكِتَابِ إبرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) .

(٤١ سورة مريم)

يدعو أهله وقومه إلى عبادة الله ويجاهده والده وهو يعبد الشيطان فيعتزلهم وما يعبدون ويتجه إلى سبيل الله . بالعبادة والدعاء . . وذلك بالنص الشريف :

(وَأَعتَزِلُكُمْ وَمَا تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدعُو رَبِّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا) .

(٤٨ سورة مريم)

ألا يكون بذلك قد اتخذ سبيل الله . . وسار فى الطريق إليه ؟ ؟

وهذا سيدنا اسماعيل الذى يقول عنه ربه فى قرآنه الكريم :

(واذْكُرْ فى الكِتَابِ إسمَاعِيلَ إنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) .

(٥٤ ـ ٥٥ سورة مريم)

وهذا سيدنا ادريس الذى يقول عنه القرآن الكريم :

(وَاذكر فى الكِتَابِ إدريس إنَّهُ كَانَ صِدِيقًا نَبِيًّا . وَرَفعنَاهُ مَكَانًا عَلِيًا) .

(٥٦ ـ ٥٧ سورة مريم)

وما وقع لسيدنا يونس إذ ابتلعه الحوت . . ثم نجاه الله . . بتسبيحه له سبحانه وتعالى . . فياترى على أى قدر من الإخلاص والصدق كان تسبيحه الذى نجاه الله بسببه إذ تقول آيات القرآن الكريم :

(وَإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المُرسَلِين . إذ أَبقَ إِلَى الفُلكِ المَشحُونِ . فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المُدحَضِينَ . فَالتَقَمَهُ الحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ . فَلَولَا أَنَّهُ كَانَ مِن المُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فى بَطنِهِ إلى يَوم يُبعَثُونَ) .

(١٣٩ ـ ١٤٤ سورة الصافات)

أما سيدنا موسى فإن الله سبحانه وتعالى قد ألقى عليه محبة منه وشمله برحمة كبرى وتقدير كريم إذ تقول الآيات الشريفة :

(وألقَيتُ علَيكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتصنَعَ عَلَى عَينِى) .

(٣٩ سورة طه)

بل إن الله جل شأنه قد اختاره لنفسه ليدعو له . . ويبلغ عنه بالنص الكريم :

(ثُمَّ جِئتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى . وَاصطَنَعتكَ لِنَفسِى) .

(٤٠ ـ ٤١ سورة طه)

وكلمه ربه تكليماً بالنص الشريف :

(وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) .

(١٦٤ سورة النساء)

ألا يكون سيدنا موسى قد سلك الطريق إلى الله . . وحبه الحب الذى جعله على هذه الدرجة من القرب؟ :

وسيدنا عيسى لقد آتاه الله جل شأنه البينات وأيده بروح القدس فهل تعطى البينات إلا لمن أعد الإعداد المناسب لذلك : : وهل يؤيد الله بروح القدس إلا أحبائه . . من يحبهم ومن يحبوه : : وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) .

(٨٧ سورة البقرة)

أما خاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد الصادق الأمين : : فلقد كان حقاً : : صادقاً مع ربه : : ومع نفسه . . ومع الناس : : أميناً فى علاقته بالخالق وعلاقته بالخلق : : أحب منذ طفولته من وجد أن كل ما حوله يشير إليه : : ابتغى كل سبيل للوصول إلى معرفته : : اتخذ منذ بداية شبابه التأمل والتفكر وسيلة للاهتداء إلى الحق : : مارس الرياضة الروحية : : عن طريق الخلوة الكاملة المتكررة والتى ماكانت تقل عن شهر بأكمله فى العام : : هى المدة التى كان يرى فيها صلى الله عليه وسلم معتكفاً فى غار بالجبل : : هو غار حراء : : طوال شهر رمضان من كل عام : : أما اعتكافه فى غير هذا الغار : : وفى غير هذا الشهر : : فى منزله : : أو فى مسراه : : فى يومه : : أو ليلته : : فالله

أعلم بمكانه . . ومدته . . لقد أحب الله قبل أن يبعثه : : احبه قدر جهده وما وسعته طاقته . . أما حبه له جل شأنه بعد رسالته فإن الله سبحانه وتعالى أمره بأن يطلب ممن يحبون الله أن يتبعوه فهو القدوة لكل من أراد أن يحب الله . . وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(قُلْ إنْ كُنْتُمْ تحِبُونَ الله فَاتَّبِعُونِى يُحبِبكُمُ اللهُ وَيَغفِرْ لَكم ذنوبَكم وَاللهُ غَفورٌ رحِيم) .

(٣١ سورة آل عمران)

ولقد رأى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما لايراه غيره . . رأى أمين الوحى ورسول الله إليه روى العين عندما ملأ الأفق عليه أول مرة . : بل إنه دنا إليه . . واقترب حتى أصبح لايفصله عنه ما يذكر وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(وَالنَّجم إِذَا هَوَى . مَاضَلَّ صَاحِبُكم وَمَا غَوَى . وَمَا يَنطِق عَنِ الهَوَى . إن هُوَ إلَّا وَحىٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوَى . ذو مِرةٍ فَاستَوَى . وَهُو بِالأُفقِ الأَعلَى . ثمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوسَين أَو أَدنَى)

(١ — ٩ سورة النجم)

ورأى جبريل مرة أخرى . . عن قرب شديد فى الإسراء والمعراج حيث انعدم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الزمان للحظات : : فذاب الحاضر ليعيش مامضى من الزمان : : فرأى آدم وهو مازال فى طور الخلق الأول حتى أنه قال حديثه الصحيح (كنت نبياً وآدم

بين الماء والطين) : : ورأى المستقبل : : القريب والبعيد : : حتى الجنة : وحتى النار : : وطويت السماء والأرض : : حيث ارتفع وارتفع : : وشارف مالا يتسع له العقل : : ورأى من آيات ربه الكبرى . . وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(وَلَقَد رَآهُ نَزْلَةً أُخرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهى . عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى . إذ يَغشَى السِّدْرَةَ مَا يَغشَى . مَازَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَد رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى)

(١٣ — ١٨ سورة النجم)

وهكذا سلكت الأنبياء والرسل السبيل إلى الله . . وهكذا أحبوا الله . . قدر طاقتهم : : واستطاعتهم . . فدعوا إليه وتحملوا فى سبيله كل تعب وأذى : : وسوء : : جاهدوا فى سبيله : : خير الجهاد : : عزفوا عن عرض الدنيا : : فلم يشغلهم عن الله شيئاً : : فالتصوف بهدفه : : ومعناه : : بدأ ببداية الإنسان : : أما لماذا لم يظهر اسم التصوف : : إلا فى الأجيال القريبة : : ولماذا لم توضع التعاريف له : : وبدأت الدراسات عنه : : وفيه : : إلا أخيراً : : فلعل ذلك لأن السلوك إلى الله وحب الله : : كان الأصل الذى يعيش له وبه وعليه كل إنسان : : فلم تكن الحاجة ماسة إلى دراسة أحوال كل الناس أو على الأقل معظمهم : : ولنا الدليل الصادق مما ينبعث من تاريخ المسلمين الأول من صحابة وتابعين : : فكيف كان أبو بكر : : ووجده وبكائه : : وعمر ابن الخطاب بقوته فى الحق وانكساره لله : : وعمر بن عبد العزيز وقد سمع أهله الملائكة يرتلون عليه القرآن الكريم وهو يحتضر : :

كيف تحمل بلال .. العبد الحبشي .. التعذيب والأذى ..

وياسر بن عمار .. وكل مسلم .. وكل مؤمن .. لقد أوضح لهم القرآن الكريم الحق .. وبين لهم الأمر .. الدنيا مهما طالت إلى فناء .. والآخرة مهما بعدت .. فنحن معها إلى لقاء .. الجنة حق .. والنار حق .. والساعة حق .. والحساب حق .. فزهدوا .. وتابوا .. وخشعوا وبكوا .. فلقد علموا وعرفوا ومارسوا .. وشهدوا فلزموا كانوا على ذكر دائم لله .. قلوبهم وجلة .. ونفوسهم خاشعة .. يزداد إيمانهم كل يوم بل كل لحظة .. قد أحسنوا التوكل على الله .. فهو الحق .. وهم المؤمنون حقاً الذين قال عنهم القرآن الكريم :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَت قلوبُهم وإِذَا تُلِيَت عَلَيهِم آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ . أُولئكَ هُمُ الْمُؤْمِنونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِم وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

(٢ — ٤ سورة الأنفال)

التصوف علم ومعرفة..

أياً كان تعريف التصوف .. ومهما اختلفت الآراء حول مادته ..
فانه .. الوصول إلى الله .. وصولا يجعل الإنسان يرى الله بقلبه .
بعد أن يرى آثاره وشواهده بعينه فى كل ما خلق . . وبعقله . .
فى كل ما حوله . . ولذلك قيل : (القلب الصوفى قد رأى الله) .

ولا يتم الوصول إلى الله إلا بأن يعرف الإنسان ربه : . ولذلك
حرص المتصوفون على السعى فى طريق المعرفة . . والعمل على إدراكها
وكثيراً ما ترددت على ألسنتهم أقوالهم مثل :

(العارف كل يوم أخشع لأنه كل ساعة أقرب) .

(ذو النون)

(من أراد أن يعرف معرفته بالله فلينظر إلى ما وعده الله ووعده
الناس بأيهما قلبه أوثق) .

(شقيق البلخى)

(جماع المعرفة صدق الافتقار إلى الله تعالى) .

(الدينورى)

(المعرفة رؤية المنة فى كل الأحوال والعجز عن دواء شكر النعم
من كل الوجوه والتبرى من الحول والقوة فى كل شئ) .

(الحلاج)

(من عرف الله فإنه يزهد فى كل شئ يشغله عنه) .

(البسطامى)

(حقيقة المعرفة المحبة له بالقلب والذكر له باللسان وقطع الهمة
عن كل شئ سواه) .

(أحمد بن خضروية)

(من أصبح وهو مستقيم فى أربعة أشياء فهو يتقلب فى رضى الله : أولها الثقة بالله . . ثم التوكل . . ثم الاخلاص . . ثم المعرفة . . والأشياء كلها تتم بالمعرفة) .

(حاتم الاصم)

(حق لمن أعزه الله بالمعرفة ألا يذله بالمعصية) .

(النيسابورى)

(عرفت الله بالله . . وعرفت ما دون الله بنور الله عز وجل) .

(البسطامى)

أى أن السعى إلى المعرفة يتم بإرادة الله وفضله فهى من ضمن ما ينعم به الله على الإنسان . . وهى من عطاء الله وقالوا عن ذلك :

(عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى) وكذلك قيل :

(إنى لا أفهم عنك إلا بك) . فعندما تصفو القلوب . . وتنتبه الحواس . . يرى الإنسان ويسمع ويفهم . . فيصل .

ولابد للإنسان حتى يفهم ما يرى وما يسمع . . أن يتعلم . . وكلما زاد الإنسان فى علمه . . كلما تجلت له الحقيقة التى ينشدها الصوفى ويعيش بها . . ولها . . فالعلم يقود الإنسان عن طريق عقله إلى الإيمان بالله ووحدانيته . ولذلك فلقد قرر القرآن الكريم أن من رأوا وشاهدوا فشهدوا على وجود الله ووحدانيته من البشر هم أهل العلم فهم فى ذلك كالملائكة الذين رأوا الله . . وذلك بالنص الشريف :

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(١٨ سورة آل عمران)

وحتى يعرف الإنسان أى العلم هو الذى يصل الإنسان عن طريقه إلى هذه المرتبة يقول القرآن الكريم :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ والأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُه كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِن عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) .

(٢٧ — ٢٨ سورة فاطر)

والمتدبر للعلوم التى أوردتها الآيات الشريفة يجدها كلها تهدى الإنسان إلى الوصول إلى الله . . فتتحقق عنده الخشية منه . . خشية المحبة . . والمعرفة . .

فأول ما تذكر الآيات الكريمة . . تذكر السماء . . وكم فى دراسة السماء وما فيها . . من آيات باهرات على وجود الله . . وشواهد واضحة تشير إلى بعض قدرة الله وعظمته . . فمادة السماء . . وأين ومتى خلقت . . وإلى أى حد . . تتجه . . وتصل . . وماذا بعد السماء التى نراها . . وإلى أى عمق هى . . وهذه النجوم التى نراها فى السماء ليلا . . كم عددها . . ومتى خلقت . . وهل هى لمجرد تزيين السماء فى المساء . . أم هى ثقوب فى قلب الفضاء يشع من خلفها نور المعرفة من عوالم قريبة . . إن مجرد هذه الفروض غير الصحيحة أثارت فى نفوس أقوامها رهبة ومحبة واعتقاد ويقين . . فكيف بالحقيقة . . عندما يعرف الإنسان أن كل نجم من هذه النجوم أكبر من الشمس

التي تدهشنا وتذهلنا بحجمها ونورها ونارها وتاريخها . . وأكبر منها بملايين المرات . . إن عدد هذه النجوم . . كبير جداً إلى درجة لا يمكن القول به . . وأصبح يضرب به المثل لكل ما ليس له نهاية . . وهذه الكواكب التي تزيد على عدد النجوم . . والتي يعتبر كوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه أقلها شأناً . . وأهونها قدرا . . كم عددها . . وكيف الحياة عليها . . وما شكل الأحياء فيها . . وكيف يأكلون . . وكيف يتحدثون . . وإلى أى درجة يعقلون . . ومتى خلقوا . . أمن آدم هم . . أم من آدم آخر . . والحركة الرهيبة الطوافة . . التي تشمل هذه الكواكب ونجومها بحيث تصبح الحركة التي تدور وتلف . هي التي تحكم الوجود . . في أى اتساع هي تتحرك . . وإذا كانت الحركة لابد أن تتم في محيط أوسع وأرحب وأكبر . . وهذه الأعداد الخيالية من الوحدات النجمية والكوكبية تتحرك بحركة سريعة إلى درجة لا نعهدها في معاملاتنا فهي أسرع من أى شيء نتصوره أو نتخيله : فيا ترى كم هي حجم المساحة التي تتحرك فيها هذه الوحدات بهذه السرعة وفي مختلف الاتجاهات . . ولا تتصادم . . ولا تتلاقى . . بل يقال أنه بالرغم من ذلك تعتبر السماء كأنها خلاء . . فكل ما فيها لا يعتبر شيئاً بجانب حجمها . . ترى هل يستطيع الإنسان أن يبحث مثل هذا البحث الأولى . . في السماء ، عن السماء . . ولا يسجد لخالق السماء ورب السماء .

إن كل هذه الدراسات عن السماء هي مقدمة علم الفلك وأول صفحاته . . بل هي مجرد الإشارة إلى فصوله وأبوابه . . فكيف بمن

تعمق فيه . . وتعلم منه . . ما من عالم من علماء الفلك إلا وترك الناس ذخيرة غنية من التسبيح لله . . والاعتراف بقدرته وعظمته . . إن حقائق علم الفلك إنما تعتبر كأنها أذكار لله . . وترانيم ودعاء .

وتذكر الآية الشريفة مع السماء نزول الماء منها . . أما كيف ينزل الماء . . فإن علم الجغرافيا يقدم للإنسان بعض روائع القدرة الإلهية . . وحسن الصنع وجميل التدبير . . فالماء فى البحار والمحيطات . . يعتبر ماءاً مغلقاً واقفاً لا يجرى . . من منبع إلى مصب . . ولو كان ماءاً عذباً . . لأصابه العفن والتلوث . . كما نشاهد فى المستنقعات . . وحفر المياه الصغيرة . . إذ تنقلب إلى بؤرة جرثومية تتكاثر فيها الميكروبات إلى أن تصبح مرضاً ودماراً . . فوضع الله سبحانه وتعالى فيها الملح كمادة حافظة . . فلا تعطب ولا تتعفن . . وإنما تظل مياهها نقية . . وصالحة وهذا الملح فى الماء ليحفظه . . يجعله غير مستساغ للطالبين . . ولا يطفئ ظمأ الشاربين . . فسخر الله الشمس . . لتبخر المياه . . فتصعد إلى أعلى . . لتتكثف . . وتنزل بعد ذلك مياها عذبة خالصة خالية من الملح . . نقية طاهرة . . سائغة راوية للناس والدواب أجمعين . . أما كيف تتجمع ذرات الماء . . الصغيرة . . وتتكثف . . فإن الرياح تحمل هذه السحب الكبيرة المحملة بالبخار . . وتزاوج بينها . . وتحمل فى طياتها كهرباء . . ذات شحنة خاصة . . لتلتقى بشحنة مضاءة . . ويتم التفريغ الكهربائى بالبرق . . ثم الرعد . . ثم ينهمر المطر . . ترى . . لو لم ينزل المطر . . هل يعيش الإنسان . . أى إنسان . . وكيف يعيش . . بلا ماء يرويه . . وبلا نبات يأكله . .

وبلا حيوان يستخدمه : : إن الإنسان والنبات والحيوان . . أساس حياتهم كلها . . الماء الذى أنزله الله من السماء . . هذه الكلمات القليلة من علم الجغرافيا الذى تشير إليه الآية الكريمة . . والتى تدفع الإنسان بوجدانه وعقله . . وقلبه . : إلى عبادة الله . . وحبه . . إنما هى لمحة خاطفة من سطر قصير من علم كبير . . فكيف لو تعلمه الإنسان ؟ .

وتوجه الآية الشريفة نظر الإنسان إلى علم النبات وعلم الزراعة وما يتصل بها من علوم . : فكيف تخرج الثمار من الأرض بنزول الماء . : بمجرد ما يصيب البلل أو الرطوبة : : بذرة النبات تحت الأرض : : تنشق البذرة بإرادة الله ليخرج منها شعيرات واهية . : صغيرة رقيقة : : تنفذ إلى أسفل . : وأخرى : : تخرج إلى أعلى . . أما التى تندفع إلى أسفل : : فإنها تجوب الأرض باحثة عن الغذاء . : عن طريق شعيرات ثانوية : : تنمو عليها : : لتكون الجذر والشعيرات الجذرية : : وفى طريقها تحت الأرض : : تدفع كل ما يعترضها من عقبات : : فإن لم تستطع بقوتها : : وما أوهنها : : وأضعفها . . ولكن فى الحقيقة تدفع أمامها ما يزيد على حجمها ووزنها بملايين المرات : : من أحجار أو عوائق : : فإنها تحاول إذابتها بما تفرزه عليها من أحماض : : فإذا لم توفق عمدت إلى الالتفاف حولها : : وتنسج أنسجة عليها : : حتى لا تتحرك تحت أى ظروف : : فتصيب هذه الجذور بضرر : : وتنمو الشعيرة الأخرى إلى أعلى : : نحو الشمس والهواء : : نحو السماء : : لتكون الأغصان والأوراق : : وكل نمو عليها نجده فى قمته ينحنى إلى أسفل : : سجوداً لله : : وخضوعاً له . .

كيف يحصل النبات على غذائه . . ؟ كيف من بين طين أسود وماء آسن . . فى الترع والقنوات تخرج الوردة الحمراء . . والياسمينة البيضاء . . والقطن الشاهق البياض . . والفاكهة والنخل والرمان . . والخضر والحبوب . . والبقول . . ثم الاختلاف فى النوع . . وبعده الاختلاف فى الصنف . . ثم بدراسة كيف ينمو النبات . . وكيف تتكاثر خلاياه . . إنه أمر بالغ الغرابة . . فتحت المجهر يرى الإنسان الخلية . . ويرى تقاسمها وتكاثرها . . كأن بها العقل الواعى . . والمعرفة التامة . . إنها تتصرف بحكمة ونحو هدف محقق . . ثم ما يصل إليه العلم كل يوم من جديد فى هذا العالم الرهيب الغريب عن عالم النباتات . . لقد وصل العلم إلى أن النبات يحس . . ويشعر . . ويسعد ويتألم . . وينام ويصحو . . يسمع الموسيقى فيطرب بها . . وإن عزفت له . . ما يزعجه . . انزعج . . إن النبات يعرف كل من يمر به . . يعرف صديقه . . من عدوه . . يعرف من يخدمه ويعتنى به . . ومن يقسو عليه ويحطمه . . إنه يحدث كل من يقترب به . . ولكن أين من يسمع . . أو يرى . . بوجدانه . . وإحساسه . . ثم زراعة الأرض . . من علمها للإنسان . . وكيف وجدت البذرة الأولى .. إن كل نبات إنما جاء من نبات سابق .. فمتى وأين وجد النبات الأول . . ومن أوجده ؟ . . واختلاف الأرض فى استعدادها للزراعة .. واستجابة أجزاء منها لها وعقم أجزاء أخرى فلا تزرع . . ولماذا كانت الصحارى والقفار .. إن علم النبات والزراعة لهى من العلوم التى تهدى دارسها إلى الحقيقة الأولى المؤكدة فى الحياة . . وجود الله ووحدانيته وتشير إلى بعض قدرته وعظمته .

أما علم الجيولوجيا أوطبقات الأرض وهو ما توردده الآية بعد ذلك إذ تشير إلى اختلاف طبقات الأرض باختلاف ألوانها المميزة . . متى بدأت هذه الطبقات . . وكيف . . وماهى أهداف وجود هذه الطبقات هل لمجرد استخدامها فى البناء والصناعة . . أم لحفظ توازن الأرض فى الفضاء . . أولتعديل مسارها الدائم ودورانها وكيف تكونت الأحجار والفحم والبترول والزيوت الأخرى ؛

وأول ما تشير إليه الآية الشريفة الثانية . . علم الإنسان . . فدراسة الناس تحتاج إلى علوم كثيرة ومعارف شتى . . أولها علم الطب . ؛ الذى يعتبر دراسة علمية دينية على جسم الإنسان الذى خلقه الله سبحانه وتعالى . . وعن طريق هذه الدراسة يصل الإنسان إلى بعض أسرار دقة الصنع وحسن التدبير وجميل التكوين . . فالإنسان لاعلك إلا أن يسجد لله ويذكر قدرته عندما يدرس عضلة القلب التى تنبض بلا إرادة . . وتدق بلا تدخل منه . . لتدفع الدم النقى فيها إلى باقى الجسم ثم تسترد الدم الفاسد من كل أجزاء الجسم حتى يعاد تنقيته .. وهى دائماً تدق . . وأبدا تعمل . . فمتى بدأت ؟ . فى لحظة أرادها الله . ؛ ولا غيره بينما كانت لا تزيد عن أنبوبة تافهة رقيقة رفيعة قصيرة لا تزيد على بضعة ملليمترات ودون تدخل من أى قوة بشرية أوفسيولوجية .. وتظل تدفع الدم إلى أعلى الرأس . . وإلى أخمص القدم . . إلى أقصى اليمين فى الأصابع وإلى أبعد اليسار فى الأنامل ؛ ؛ ومهما كان وضع الإنسان . . نائماً . . أوماشياً . : راجلا ؛ ؛ أوراكباً . : معتدلا .. أومنقلباً . . وفجأة فى لحظة محدودة . . يقف

النبض :: بعلة أو بدون علة :: بسبب أو بدون سبب :: ولا سبيل لإعادته . . إن أساتذة القلب وعلمائه يقولون هنا الله . . ولا إله إلا الله وعلماء العين وهم يعرضون ما تعلموه على غيرهم يؤكدون أنهم وحدهم هم الذين يرون الله . . فى دقة خلقه للعين ونظامها . فملايين الخلايا وعشرات الأجهزة . . فى هذا المكان الدقيق . . تعمل على أن تنقل بأمانة . . الصورة المعروضة أمامها :: بألوانها الحقيقية وبزواياها المختلفة . . متجسدة حية . . ساكنة أو متحركة . . فهل تعلم فى أى وقت يتم هذا الانتقال . . إن العلماء يضربون المثل للسرعة الخارقة للعادة . . بسرعة أبصار العين :: فيقولون كلمح بالبصر :: ولبيان مزيد من قدرة الله وعظمته فى خلق العين فإن الصورة . . كل صورة . . وأى صورة . . تنقل إلى داخل المخ مقلوبة حيث يعدلها فوراً . . حيث لا يوجد قياس زمنى لما بين دخولها مقلوبة ورؤيتها معدولة .. أليست هذه قدرة الله .. وجميل صنعه وحسن تدبيره . . ودارس الفم يعجب كيف يخرج السن من اللحم . . وعلى أى شيء يرتكز لتتمكن من القضم والقطع والهرس والطحن . . إنه يحتار فى حسن تركيب كل سنة وناب وضرس :: وفى وضعها كلها :: حتى أنه بعد خلعها . . والحاجة إلى تركيب طقم أسنان . . فإنه يجاهد أن يجعلها بنفس النظام والترتيب الذى كان . . اعترافاً بحسن خلق الله . . ويعجب هذا الدارس عندما يرى لسان المزمار أو اللهاة :: تقفل فتحة الأكل عند التنفس وتقفل فتحة التنفس عند الأكل :: من يقول لها . . ومن يشرف عليها :: ثم الصوت . . وكيف يخرج . . وهذه الأحبال الصوتية :: التى تتحرك وتهتز فى

مساحة تكاد لاترى ؟ . وبالرغم من ذلك يخرج منها الصوت ذوأنغام عديدة . . ولهجات كثيرة . . وتميزات عجيبة . . واللسان . . وكيف يتذوق الأكل . . وكيف يعرف البارد من الساخن . . الحلو من المر ؟ ؟ الناعم من الخشن . . والأذن . والتى يوجد بها آلاف العظام ومداخل ومخارج . . تهتز فيها مستقبلات الأصوات . . ليسمع الإنسان ؟ ؟ الصوت . . بكل أبعاده . . ودارس العضلات يقرر أن معجزة الخلق ؟ ؟ تبدو فى عمل العضلات . . إنها مسرح الغرائب والعجائب . . ومن أراد أن يحتقر العقول الالكترونية مجتمعة . . ويريد أن يزدرى ؟ ؟ بأجهزة اطلاق الصواريخ . . وتحطيم الذرة .. واطلاق القوى النووية عليه أن يدرس أى حركة بسيطة . . من حركات العضلات . . ولو حركة تافهة . . كحركة طرد ذبابة من على الوجه . . إن هذا الأمر يستغرق من الأعمال الميكانيكية والأجهزة التى نعرفها فى حياتنا الطبيعية ما يزيد على كل الأجهزة الموجودة فى دولة متقدمة صناعياً لفترة قد تزيد على الشهر . . ونحن نستسهل هذه الحركة وتظل عضلاتنا تعمل ليل نهار . . وفى أعمال هامة ومتلاحقة . ، ودارس الجهاز الهضمى ، ؟ والدورى والتنفسى . . والعصبى . . والبولى . . وأى جهاز وكل جهاز بل حتى الجلد .. الذى يختلف عن باقى الأغشية المماثلة اختلافاً جوهرياً فهو يسمح بالعرق أن يخرج من داخل الجسم إلى خارجه . . بينما لايسمح فى الوقت نفسه بأن يدخل الماء من خارج الجسم إلى داخله رغم أن كل الأغشية وكافة النظريات العلمية تقرر أن الأغشية تسمح دائماً بدخول الماء من المحلول الأقل تركيزاً إلى المحلول الأكثر تركيزاً ليتوازن التركيز . . ولكن الجلد يختلف عن ذلك بل ويعمل على عكسه

إن كل خلية في الجسم كما قال علماء الطب :: تتصرف كما تتصرف الجن والشياطين في الحواديت والخرافات : كأنها تعلم مقدماً ماذا سيقع :: وماذا سيكون عليه الأمر :: إن دارس الطب الوقائي يقرر أن الإنسان منذ ولادته تحيطه سبل الوقاية الداخلية بما يجعل الإنسان يسجد :: ويسبح بحمده . . فهو يولد نقياً رغم ما كان فيه في الرحم . . وأول قطرات تنزل له من أمه . . عبارة عن محلول كيمائي : . مطهر تطهر كل داخله . . بعدها ينزل اللبن ليرضع . . والمناعة الذاتية التي يكتسبها الإنسان أكبر من أن يتسع لها أي بحث . . فإن الإنسان يصاب في كل لحظة بملايين الجراثيم والميكروبات :: وتدخل إلى جسمه . . حيث يقوم الجسم فوراً بإعداد أجهزة للدفاع والحرب . . وتقوم معركة ضارية لا يحس بها الإنسان غالباً . . بين هذه الميكروبات والجراثيم وبين سبل الدفاع في الجسم :: وعندما تتغلب الميكروبات ينبه الجسم صاحبه إلى ذلك عن طريق الألم أو الحرارة :: ليساهم معه . . بعون خارجي :: وإمداد آخر :: ودارس الطب العلاجي :: يقرر إنه في كل علاجاته إنما يحاول أن ينشط دفاع الجسم وأنه يسلك ما يجب أن يسلكه الجسم لوحده ::

ولا تطالبنا الآية الكريمة بدراسة الإنسان من ناحية الطب والعلاج فقط بل إنها تدعو إلى تعميم دراسة الإنسان من كل نواحيه :: واختلاف كل فرد عن الآخر :: بحيث لم يتشابه أي إنسان مع الآخر على طول الزمن فيا ترى كم عدد ملايين البشر الذين خلقوا منذ آدم :: وحتى اليوم :: ثم كم العدد حتى تنتهي الحياة من على الأرض ::

هذه الأعداد ... لم يتفق مرة أن وجد من يشابه الآخر ... فيا ترى أى قدرة هذه التى أرادت فخلقت ... وصورت ... فأبدعت ... وأشفقت فغيرت شكل الخلق وفى هذه المساحة الصغيرة من الوجه .. وكل ما فيها محدد فى مكان واحد .. إن العلم يقول بإمكان الاختلاف فى عشرة أشكال .. أو عشرين .. ولكن هل يتم الاختلاف فى مائة .. مستبعد .. أما الاختلاف فى ألف فمستحيل .. فكيف الاختلاف فى ثلاثة آلاف مليون هم عدد الناس حاليا وكيف إذا فى ملايين الملايين ممن عاشوا من قبل .. وسيعيشون من بعد .. إنها قدرة الله .. التى هى فوق كل فكر أو ظن .. ثم اختلاف بصمة الأصبع .. وبصمة الجلد .. وبصمة الصوت .. واختلاف ألوانهم وألسنتهم وأرزاقهم .

وتشير الآية الشريفة إلى دراسة الحيوان .. وكم فى هذه الدراسة من عظات وعبر فهذا الجمل .. لأنه يعيش فى الصحراء .. خلق الله فى أقدامه الخف الذى يجعل سيره ميسر فيها .. وشق شفته العليا ليغلق بكل جزء طاقة من أنفه عند هبوب الرياح والأعاصير .. وزاده بحمله على ظهره .. ليعيش عليه .. إذا طال سيره فى الصحراء وانقطع عنه الزاد .. والبقر والغنم والجاموس .. والحصان .. والسبع .. والقرد والفيل .. إنها شواهد على عظم قدرة الله .. وإن كل دراسة فى أى واحدة منها .. بل وفى أى جزء من واحدة .. لتجعل الإنسان يسجد لله .. ويصل إلى درجة من المعرفة به .. عن طريق معرفة آثار قدرته .. وعظمته .. إذا كان العلم قد أعجزه .. ما يراه فى إفراز الحيوان للبن من بين الدم والفرث .. فيخرج بلا رائحة كريهة وبلا لون

أحمر ». فإن العلم ليدهشه .. ويحيره فعلا .. ما تأكد منه من أن معظم الحيوان لها خاصيات رهيبة .. فبعضها يرى الأشباح والأرواح وكم من مريض قبل احتضاره شهدأهله .. حركات مريبة من حصان ، أو جمل .. فهل يرى الحصان روح المحتضر وهى تحاول الخروج .. أم يرى الملائكة التى جاءت تقبض روحه .. وبعضها تحس بالأمر قبل وقوعه .. فصياح الديكة .. واضطراب الدجاج .. وشرود الدواب .. وضرب الحيوانات الأرض بأقدامها مع صراخها .. يدل على قرب وقوع الزلازل .. وكم من حيوان أليف أوشرس .. ثار فى طائرة كان ينقل عليها .. واستمرت ثورته .. دقائق قصيرة أوعديدة .. كانت إيذاناً بوقوع حادث فى الطائرة .. إن كل هذه الدراسات .. بل إن كل طريق إلى العلم إنما يوصل الإنسان إلى معرفة الحقيقة .. التى يهدف التصوف إليها .. وهذه العلوم التى تبحث فى معيشة الحيوانات والطيور والحشرات .. وتصل إلى حقائق غريبة فى معيشتها .. إنها تتفاهم مع بعضها وتتحادث .. وتختلف وتأتلف .. وكل نوع وكل صنف .. له حياته المستقلة والتى تختلف عن حياة الأخرى .. وأفراد النوع الواحد .. يعيشون فى معيشة جماعية منظمة منسقة .. عوالم غريبة .. وأسرار رهيبة .. يزيد كل عالم يبعضها قرباًمن الله .. حيث يرى آثار قدرته .. وشواهد عظمته .. وأدلة وجوده .. فى كل سطر يدرسه .. وفى كل صفحة يبحث فيها فى هذا الكتاب العجيب .. كتاب الحياة .

وحتى يدرس الإنسان هذه العلوم .. أوبعضها .. أوجزء من علم واحد .. لابد له من دراسات ابتدائية وعلوم تمهيدية .. حتى

يصل إلى ما بعدها .. فعليه أن يقرأ ويكتب .. ثم يتعمق فيها .. ويدرس لغات أخرى ليقرأ ماكتبه غيره .. ثم يدرس وسائل العلم والمعرفة .. وفى كل شأنه .. لابد أن يعتمد على الله .. تمام الاعتماد وأن يتقى الله .. ما استطاع فى كل أمره .. وجميع شأنه فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم الإنسان كل ما علم وكل مالم يعلم بعد .. وكل علم يصل إليه الإنسان إنما هو من الله .. وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَم يَعلَم)

(٥ سورة العلق)

كما تقول الآيات الكريمة :

(الرَّحمَنُ . عَلَّم القُرآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ)

(١ ـ ٤ سورة الرحمن)

وتتسع معانى الآيات لتشمل البيان الذى يشير إلى اللغة وأساليبها وتراكيبها والبيان الذى يختص بوسائل الإيضاح والتبين .. والوصول إلى نتائج الدراسة وحقائق العلم ..

وطالب القرآن الكريم الإنسان بتقوى الله .. لأنها سبيل تلقى الإنسان العلم من الله بالنص الشريف :

(وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلمكُم اللهُ)

(٢٨٢ سورة البقرة)

وعلى ذلك فإن طريق الإنسان لتلقى العلم من الله . . هو أن نتقيه قدر استطاعته وأن يأخذ فى أسباب العلم حتى يستوعب ما يوفقه الله إليه . . فعندما يوحى الله جل شأنه إلى إنسان بالعلاج الشافى لمرض خطير لابد أن يكون هذا الإنسان قد درس الطب . . وعندما يوحى بحل معادلة رياضية معقدة . . لابد أن يكون الإنسان قد درس أصول الرياضة . . وأصبح مستعداً لتلقى حلول الصعب منها . . ولهذا نجد أن الهام الله سبحانه وتعالى ووحيه كثيراً ما يمنحه إلى من استعدوا لفهمه عن طريق الإعداد العلمى والاستعداد الدراسى . . من كافة النحل . . ومختلف الأديان . . بل ومن غير أهل الدين والإيمان . . ولو تعمق أهل التقوى فى الدراسة لأصابوا فى العلم أكبر مما يصيبه غيرهم . . ولوصلوا فى الاكتشافات والبحوث إلى قمم لايصل إليها سواهم .

وهذه العلوم وأمثالها إنما يصل الإنسان بها إلى معرفة الحقيقة . . وجود الله ووحدانيته . . وكلما تعمق الإنسان فيها كلما شاهد ورأى وسمع . . ولقد قال أبوسليمان الدارانى (من أراد واعظاً بيناً فلينظر إلى اختلاف الليل والنهار) . . هذا النظر العلمى إنما يصل به الإنسان إلى دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وتحركها فى الفضاء . . وعلاقة توزيع الليل والنهار . . ولوم الإنسان بالليل . . وسعيه على معاشه بالنهار . . إن العبر لكثيرة وإن الدروس لمتعددة . . تلك التى نصل إليها عن طريق النظر فى اختلاف الليل والنهار . . وصدق الله العظيم الذى يقول فى قرآنه الكريم :

(إنَّ فى خَلق السَّمَاوَات وَالأَرض واختِلافِ اللَّيلِ وَالنهَارِ لآيَاتٍ لأُولى الأَلبَابِ)

(١٩٠ سورة آل عمران)

وقد دعت الصوفية إلى العلم ما استطاعت : . العلم الذى يصل به الإنسان إلى الحقيقة : : ويرى ويعرف الظاهر الواضح الجلى للناس ويرى ويعرف الباطن الخفى الذى لايرى إلا بالبصيرة التى تجليها تقوى الله . : يدرس ويتعلم الدين ليعرف الحلال والحرام : : ويكون هذا العلم هو سبيله إلى التقوى والعبادة .: وأن يصل بالعلم إلى ما أراده الله من معرفة . : ولايكون هدف العلم عرض الدنيا فتمتنع عليه المعرفة : : وقد قال ذو النون

(كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضاً للدنيا وتركاً لها واليوم يزداد الرجل بعلمه حباً للدنيا ولها طلباً وكان الرجل ينفق ماله على علمه واليوم يكسب الرجل بعلمه مالا . وكان يرى على صاحب العلم زيادة فى باطنه وظاهره واليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر) .

ومما قاله أهل التصوف فى العلم :

(العلوم ثلاثة : علم بالله . . وعلم من الله . : وعلم مع الله : : فالعلم بالله معرفة صفاته ونعوته ، والعلم من الله علم الظاهر والباطن والحلال والحرام والأمر والنهى فى الأحكام . والعلم مع الله الخوف والرجاء والمحبة والشوق) .

(محمد بن الفضل البلخى)

(العلم بالله أتم من العبادة له) .

(ابو بكر الكتانى)

(المعتزلة نزهوا الله تعالى من حيث العقول فأخطأوا . . والصوفية نزهوه تعالى من حيث العلم فأصابوا) .

(ابو على بن الكاتب)

(العلم يورث المخافة والزهد يورث الراحة والمعرفة تورث الإنابة)

(الحارث المحاسبى)

ولا يعرف قدر المخافة التى تتولد فى الإنسان بالعلم إلا من درس أو حتى قرأ عن تركيب الذرة مثلا . . فكل ذرة فى الوجود . . فى الخشب أو الحجر . . فى الماء والهواء . . على الأرض أو فى السماء . . أى ذرة مما يتكون منها الوجود . . إنما تتكون من كهارب صغيرة وهباءات ضعيفة . . تلف وتطوف فى دائرة محددة . . وحول مركز قوة يمد كل ما فى الوجود من حياة وحركة وطاقة ونور وأن هذه الكهارب القريبة التى لا تستطيع الحركة والدوران . . فآثرت السجود والقيام . . هذه الحركة . . الطواف . . والسجود . . حركة دائبة ودائمة . . بدأت ببداية خلق الذرة . . قبل أن يخلق الإنسان والنبات والحيوان والأرض والسماء . . بملايين الملايين من الأجيال . . كانت وما زالت وستظل . . فى تسبيح وطواف وسجود . . تمكن العلم من إثباته والعلماء من رؤيته . . كيف لا يخاف الإنسان . . ويخشى . . وإذا ما وصل به علم الذرة إلى حقيقة تكون الماء والهواء — من ذرات —

وتصفها على الأقل ملتهب مشتعل . . وبمجرد انفصال ذرة منه يصبح الوجود نارا مشتعلة ولهيباً متوهجاً . . وسعيرا رهيباً . . ما الرأى؟

وهكذا فإن العلم هو سبيل المعرفة . . ولذلك فان أهم ما يجب على الإنسان . . كل إنسان وأى إنسان يريد أن يعرف الحق . . ويلتزم به . أن يتعلم . . ما وسعه العلم . . وأن يرى دائماً فى العلم . . السبيل إلى معرفة الله . . وأن يتخذ من كل العلوم . . دلالات على وجود الله . . والمؤشرات على بعض قدرته . . وعظم حكمته . . ولذلك فإن أول طريق التصوف . . العلم . . والمعرفة . . إذ لايستوى الذى يعلم والذى لا يعلم . وصدق الله العظيم الذى يقول :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ)

(٩ سورة الزمر)

..وسعى وعمل..

خلق الله الإنسان ليجعله خليفة له فى الأرض لحكمة يعلمها .. ولأمور قدرها .. ولأسباب قررها .. فقال عز من قائل بالنص الشريف :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً)

(٣٠ سورة البقرة)

وواجب الخلافة يستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما كلف به .. وأن يحافظ على كل ما استخلف عليه وأن يباشر كل ما من شأنه أن يحقق استمرار كل ما استخلف عليه بنفس الدرجة والأسلوب ما أمكنه ذلك .. وأن يحول بين ما استخلف عليه وبين أى ضرر أو إفساد يطرأ عليه .

فالله سبحانه وتعالى قد هيأ الأرض ومهدها ليجرى فيها الماء الذى يسقى الحرث والنسل ويخرج منها الزرع والثمر .. ويسعى عليها الناس يسيرون من مشارقها إلى مغاربها أو بعكسون .. ويرتحلون من جنوبها إلى شمالها أو يعدلون .. فيقول الله سبحانه وتعالى :

(وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعمَ المَاهِدُونَ)

(٤٨ سورة الذاريات)

وبذلك وجب على كل إنسان .. أيا كان .. وأينما كان .. أن يسهم بكل طاقاته .. وأن يعمل بكل إمكانياته لتحقيق ذلك من جهة أو أخرى .. ويعمل أو غيره .. ومن استطاع ولم يعمل فإنه لم يؤد الأمانة .. ولم يحقق الخلافة ..

والله جل شأنه جعل معايش الناس فى الأرض : . ولابد من سلسلة من الأعمال المتلاحقة وخطوات من السعى متتابعة يجب أن تتم من مجموعة الناس حتى يحصل كل فرد على معاشه الذى قدره الله له : : فمثلا ليتحقق لبائع الخبز حصوله على معاشه الذى كتبه الله له : : وليتمكن كل إنسان أن يبتلع هذه اللقيمات من الخبز التى تقيم أوده : : لابد من عامل يعد هذا الخبز : : وقبله لابد من آخر يحمل إليه الدقيق : : وغيره يسبق بطحن القمح : : ومن قبله يوجد من يشترى ويبيع القمح ومن زرعه وسقاه وحصده : : إن المتأمل لكل عمل يجد أنه لايتم إلا بسلسلة طويلة من أعمال سابقة . : يشترك فيها العديد من الأفراد والكثير من الناس : : كل ليحصل على رزقه . : وكل ليتيسر له معاشه : : والله سبحانه وتعالى يقول :

(وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوزُون . وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّستم لَهُ بِرَازِقِينَ) .

(١٩ — ٢٠ سورة الحجر)

وهكذا يتحدد لكل إنسان دوره فى الحياة الذى لابد أن يقوم به : : وإلا إذا انقطعت السلسلة فى مكان كيف يكون الأمر ؟ : وكيف يصل الرزق لأصحابه ؟ . فلو لم يزرع الزارع القمح . : أو لو لم يطحنه الطحان أو لو لم ينقله العامل : . لأى سبب حتى لو لجأ إلى العزلة وهو قادر على العمل ؟ أى يكون بذلك قد خالف أمر ما استخلف وسعى لعدم تحقيق ما أراده : : وأيا كان السبب : . فإنه غير مقبول . : وألا يكون

بذلك قد سعى فى إفسادها . . بصورة أو أخرى . . وهذا ما نهى القرآن الكريم عنه فى آيات كثيرة بمثل النص الشريف :

(وَلَاتُفْسِدُوا فى الأَرضِ بَعدَ إِصلَاحِهَا ذَلِكُم خَيرٌ لَّكُم إِن كُنتُم مُؤمِنِينَ)

(٨٥ سورة الاعراف)

وحتى يضرب الله المثل للناس ويحثهم على السعى ويدفعهم للعمل كتب على أنبيائه جميعاً . . العمل والسعى . . العمل بمختلف أشكاله . . والسعى بكل ألوانه . . فكلهم اشتغلوا برعى الغنم وعملوا فى أوجه أخرى من العمل علاوة على الرعى . . فهذا سيدنا نوح يعمل فى الخشب وما يتصل به من عمل لذلك تمكن من صنع سفينته التى انجاه الله بها وانجى كل من استجاب له . . بالنص الشريف :

(فَأَوحَينَا إِليهِ أَنِ اصنَعِ الفُلكَ بِأَعيننَا وَوَحينَا فَإِذَا جَاءَ أَمرنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسلُك فِيهَا مِن كُلٍّ زَوجَينِ اثنَينِ وَأَهلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيهِ القَولُ مِنهم)

(٢٧ سورة المؤمنون)

وهذا سيدنا داود يشتغل فى صناعة الحديد والمعادن . فيصنع دروع الحرب وألبسة القتال بالنص الشريف :

(وَعَلَّمنَاهُ صَنعَةَ لَبُوسٍ لَّكم لِتُحصِنَكُم مِنَ بَأسِكُم فَهَلْ أَنتُم شَاكِرونَ)

(٨٠ سورة الانبياء)

وخاتم الرسل والنبيين سيدنا محمد الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم اشتغل بالتجارة بعد الرعى . . حتى بعد بعثه برسالة الإسلام كان يشارك فى كل عمل يقوم به الجمع . . فساعد فى البناء عندما كانت تبنى المساجد فى أول الدعوة . . وشارك فى حفر الخنادق . . وإقامة المتاريس فى الغزوات . . واحتطب وجمع الحطب عند الاشتراك فى إعداد الطعام . . ولاشك أن الرسل والأنبياء هم القدوة الصالحة والإمامة الكاملة للناس جميعاً . . فوجب على كل إنسان أن يعمل قدر استطاعته وأن يسعى قدر طاقته .

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده جميعاً بالعمل . . وتكررت الدعوة إليه . . وحتى يتبين للإنسان قدر اهتمام القرآن الكريم بالعمل . . نجد أن الدعوة إليه وتوجيه النظر إلى ضرورة قيام الإنسان به . . قد تكررت حوالى ٣٥٩ مرة حيث يذكر فيها العمل والعمال مثل ما جاء فى الآيات الكريمة :

(مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجزِيَنَّهُم أَجرَهُم بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ)

(٩٧ سورة النحل)

(اعمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكرًا وَقَلِيلٌ مِّن عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

(١٣ سورة سبأ)

(مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرفَعُهُ)

(١٠ سورة فاطر)

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَوزُ العَظِيمُ . لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعمَلِ العَامِلُونَ)

(٦٠ ـ ٦١ سورة الصافات)

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهم مَغفِرَةٌ وَأَجرٌ عَظِيمٌ)

(٩ سورة المائدة)

وليس العمل الذى أمر الله به سبحانه وتعالى هو مجرد أداء الإنسان لما كلف به . . بل إن الله سبحانه وتعالى يأمر الإنسان بأن يكون أميناً فى عمله . . هادفاً إلى حسن الأداء حتى يكون العمل صالحاً ، ولهذا نجد أنه فى معظم الآيات التى ورد فيها العمل جاء فيه الأمر بالعمل الصالح فى مثل الآيات الشريفة :

(يَا أَيُّها الرُّسُل كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعمَلُونَ عَلِيم)

(٥١ سورة المؤمنون)

(ومَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا)

(٧١ سورة الفرقان)

(وَمَن يُؤمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَل صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدخِلْهُ جَنَّات تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَار خَالِدِين فِيها أَبَدًا ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيم)

(٩ سورة التغابن)

وحتى يعمم القرآن الكريم الدعوة إلى كل صالح من العمل فلقد دعا إلى عمل الصالحات فى أكثر من ٦٠ آية شريفة مثل :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُم وَحُسنُ مَآبِ)

(٢٩ سورة الرعد)

وليتأصل فى نفس الإنسان الإحساس فى العمل فلقد قرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يجازى الإنسان بأحسن أعماله وذلك فى مثل النص الكريم :

(وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقطعُونَ وَادِيًا إلاَّ كُتِبَ لَهُم لِيَجزِيَهم اللهُ أَحسَنَ مَا كَانوا يَعمَلُونَ)

(١٢١ سورة التوبة)

(وَالذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَنكَفِّرنّ عَنهم سيئَاتِهم وَلَنَجزِيَنَّهُم أَحسَنَ الَّذى كانوا يَعمَلونَ) .

(٧ سورة العنكبوت)

وحتى يتمرس الإنسان على الإحسان فى كل أحواله وأفعاله فقد دعا القرآن الكريم الإنسان إلى أن يرد تحية الغير له بأحسن منها أو بمثلها على الأقل بالنص الشريف :

(وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّة فَحَيُّوا بِأَحسَنَ مِنهَا أَو رُدُّوهَا إنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيء حَسِيبًا) .

(٨٦ سورة النساء)

وإذا تكلم فبأحسن ما يستطيع من الكلام بالنص الشريف :

(وَقُل لِعبَادى يَقُولُوا الَّتِى هِيَ أَحسَنُ)

(٥٣ سورة الإسراء)

وأن يؤدى الإنسان حق أخيه بكل إحسان وذلك بالنص الكريم :

(فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِن أَخِيهِ شَيءٌ فاتِّبَاعٌ بِالمَعرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيهِ بِإِحسَانٍ)

(١٧٨ سورة البقرة)

وهذا بعض التفصيل لما أمر به الله عز شأنه عباده بأمر صريح ونص واضح بالإحسان فى الآية الشريفة :

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدلِ وَالإِحسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُربَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ)

(٩٠ سورة النحل)

وذلك كله لخير الإنسان نفسه إذ سيلقى جزاء إحسانه بالإحسان وهل يمكن أن يكون غير ذلك بعد أن تقول آيات القرآن الكريم فى النص الشريف :

(هَل جَزَاءُ الإِحسَانِ إِلَّا الإِحسَانُ)

(٦٠ سورة الرحمن)

وبديهى أنه لايشترط فى العمل أن يكون كله عملا يدويا . . فهناك من عمله . . الكلمة يلقيها . . أو الحكم يقضى به . . أو الدرس يعلمه للطالب . . وهناك من انتهت دورته الإنتاجية فى الحياة . . ببلوغه السن التى تقعده عن السعى والسير والضرب فى الأرض . . فعمله الذى لابد له منه . . هو النصيحة يلقيها لغيره . . والتجربة يقدم نتيجتها لأخيه ولولده . . ولجاره وأهل وطنه . . إذا سئل أجاب وإذا أجاب فبالحق والصدق والإحسان والإخلاص ،

هذا ما فرضه الله سبحانه وتعالى على عباده جميعاً . . فمن عرف ربه . . وأراد أن يقترب منه . . ويصل إليه . . التزم الطريق الذى يحقق فيه ما أمر به . . وعلى قدر عمله وسعيه . . يكون قربه . . ووصوله فكلما ازداد الإنسان عملا . . وكلما أحسن فى أدائه . . يبغى وجه الله ويريد ثوابه . . كان وصوله وقربه . . ولقد عرف ذلك أئمة التصوف فالتزموا به . . ولذلك نجد أن أقوالهم تحض على العمل وتدعو له . . بل تجعله أساس التصوف . . فنجد أن معروف الكرخى يقول :

(إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل) . .

وفى كل دعوة للعمل نجد أن الهدف منه هو الخير كل الخير . . فكل عمل يستهدف الخير هو من سبل التصوف ، ولذلك نجد أن ذو النون المصرى يقول فى التصوف :

(أن تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله وترفض كل ما يشغل عن الله وألا تخاف فى الله لومة لائم مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

ولقد عرف المتصوفون الحقيقة التى يخاف بسببها الإنسان الموت . . وكل من دخل فى لحظات الاحتضار تمنى لو يطول به الأجل لفترة أخرى يحسن فيها العمل لعل الله يغفر له ويرحمه . فلماذا لا يعمل الإنسان الخير كله فى حياته ما استطاع إليه السبيل . . حتى أنه كلما اقترب من الموت أو اقترب منه الموت كلما أسعده أن يقترب من

تلقى جزاء الخير الذى عمله .. وفى ضوء هذه المعرفة قال البلخى أحد أئمة التصوف :

(استعد إذا جاءك الموت لا تسأل الرجعة) .. كما قيل :

(طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب) . إذ كيف تطلب الجنة دون أن تقدم ما تستحقها عليه ؟ . ولاشك أنه على قدر عملك .. يكون قدر تمتعك فى الجنة . ولذلك نجد أن أهل التصوف عملوا .. بجهد .. وكد .. فاذا انتهوا من أعمالهم .. الظاهرة .. اتجهوا إلى أعمالهم الباطنة .. وفى كل أعمالهم الظاهرة والباطنة .. لايبتغون إلا الله .. ولا يعملون إلا .. لله .. فكانوا يجتهدون فى عملهم وكأن الواحد منهم مكلف بكل أعمال الدنيا .. ولايتجهون بأعمالهم إلا إلى الواحد الأحد .. الفرد الصمد .. ومن أقوالهم فى هذا الشأن ما قاله أحمد بن عاصم الانطاكى : (اعمل على أن ليس فى الأرض أحد غيرك .. ولا فى السماء أحد غيره) .

وهكذا فإن التصوف علم ومعرفة .. وسعى وعمل .. وما أحسن جزاء سعى الإنسان فى عمله المشكور .. والذى يقول عنه الحق تبارك وتعالى :

(وَإِذَا رَأَيتَ ثَمَّ رَأَيتَ نَعِيمًا وَمُلكًا كَبِيرا . عَالِيَهُم ثِيَابُ سُندُسٍ خُضرٌ وَإِستَبرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُم رَبُّهُم شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعيُكُم مَشكُورًا)

(٢٠ — ٢٢ سورة الانسان)

صدق الله العظيم

.. وعبادة ومجاهدة ..

يقول الله سبحانه وتعالى :

(وَمَا خَلَقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعبُدُونِ)

(٥٦ سورة الذاريات)

وهكذا يتقرر حكم الله فى خلق الإنسان والجن . . خلقوا جميعاً ليعبدوا الله وحده . . فلا يعبد الإنسان غيره من الناس ولامن الجن . . ولايعبد الجن غيره من الجن أوالإنس . . إنما الكل يعبدون الله . . فلا يعبد الإنسان غير الله . . ولا يوجد من يعبد غير الله . . لذلك كانت دعوة الأنبياء والرسل جميعاً عبادة الله سبحانه وتعالى فيقول القرآن الكريم فى آياته الشريفة :

(وَلَقد أَرسَلنَا نُوحًا إلى قَومِهِ فَقَال يَاقوم اعبُدُوا اللهَ)

(٢٣ سورة المؤمنون)

(وَإبراهِيمَ إذ قَالَ لِقَومِهِ اعبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ)

(١٦ سورة العنكبوت)

(وَإلى عَادٍ أَخَاهُم هُودًا قَالَ يَاقَومِ اعبُدُوا اللهَ)

(٦٥ سورة الاعراف)

(وَإلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحًا قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ)

(٧٣ سورة الاعراف)

(وَإلَى مَديَن أَخَاهُم شُعيبًا قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ)

(٨٥ سورة الاعراف)

(وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسرَائِيلَ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُم)

(٧٢ سورة المائدة)

وقال الله جل شأنه لسيدنا موسى :

(إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعبُدنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكرِي)

(١٤ سورة طه)

وتكررت الدعوة إلى عبادة الله فى أكثر سور القرآن الكريم : : بل نجد فى معظم سوره الشريفة يتكرر الأمر بعبادة الله . . أمراً صريحاً واضحاً وذلك مثل ماجاء بالآية الكريمة :

(فَاسجُدُوا لِلهِ وَاعبُدُوا)

(٦٢ سورة النجم)

وهكذا كانت دعوة كل الرسل والأنبياء وفى ذلك يقول القرآن الكريم مؤكداً هذه الحقيقة فى النص الشريف :

(وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعبُدُونِ) .

(٢٥ سورة الانبياء)

وتستوجب عبادة الله أن يقوم الإنسان بأداء مافرضه الله عليه : : من إيمان به وبرسله : . وإقام الصلاة وإخراج الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه السبيل . : ويستلزم أمر الإيمان بالله : : واليقين بأن لاإله إلا هو . . ألا يلجأ الإنسان فى ظاهره وفى باطنه إلى غيره . . ولايعتمد . . جهراً أوسراً . . على سواه . . وأن يؤمن بأن

كل الخلق هم عباد الله : : أجرى عليهم ولهم ماشاء : : فما وقع هو تقديره ومشيئته . . ومالم يقع هو تدبيره وإرادته : : وأن يعى الإنسان تماماً ويتفهم كاملا : : مايقرره القرآن الكريم فى ذلك من آيات كريمة : : تكاد لاتخلو منها سورة من سوره الشريفه . . فلنتدبر جميعاً قول الله سبحانه وتعالى :

(أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(٥٤ سورة الاعراف)

حقاً وصدقاً : : فمن خلق غيره : : ومن بيد الأمر سواه . : وهكذا تتأكد الحقيقة الأولى فى الحياة والتى يجب أن يعيش بها وعليها كل إنسان ولا شك أنه كلما تعمق إيمان الإنسان بربه : : وكلما اشتد يقينه به : : فاقترب منه : : فعلى من أراد التصوف : : أن يعمق إيمانه بربه : : إلى درجة يحس فيها بالقرب منه : :

ولا شك أن كل إنسان إنما يؤدى ما فرضه الله عليه :: فالفريضة واجبة الأداء : . حتماً : : فمن تركها فكأنه يستنكف أن يكون عبداً لله نعوذ بالله الرحمن الرحيم أن نكون جميعاً منهم : : أو يجمعنا معهم : : وندعوه جل شأنه . : أن يباعد بيننا وبينهم : : حتى يهديهم : : وعلى قدر أداء الفريضة : : وحال الإنسان فيها : : يكون موقعه من ربه : : فمن أهمل أركانها . : ولم يحافظ على شروطها : : ولم يكن على مايجب أن يكون عليه : . فهل كان فى هذا الأداء مؤمناً بأنه يقف بين يدى الله فلينظر الإنسان حاله إذا ماوقف بين يدى من هو أكبر منه مقاماً : : وليتخيل هل تقوم نسبة بين أى مخلوق وبين الخالق : : فكيف ياترى

يجب أن يقف الإنسان وهو بين يدى ربه .. كيف يكون ظاهره .. وكيف باطنه .. على قدر قربك منه .. يكون قربه منك .. ولذلك فإنه إذا كان واجب كل إنسان أن يؤدى هذه الفرائض .. وهو يؤمن أنه بين يدى ربه .. فإن على من أراد أن يدخل فى طريق التصوف .. أن يؤمن أنه فى كل لحظة وكل حين .. مع الله .. الذى يراه ويسمعه .. فيكون دائماً وأبدا على ما يجب أن يكون عليه .. وأن يكون حاله .. طوال نهاره وليله .. حال .. من يقف بين يدى الله فى فريضه .. فاذا وقف لأداء الفريضة .. أحس بفناء وجوده .. فقد اتصل الفرع بالأصل .. إذا كبر وهلل .. فعن قصد ويقين وإذا قرأ القرآن .. فإنه يقرأ كلام الله .. فليقرؤه على ذلك .. وليتخير ما يجب أن يكون عليه من حال .. فإذا ركع وإذا سجد .. وإذا قام .. فإنما .. هو مع الله .. وكلما اجتهد .. كلما .. كان أسرع فى الطريق .. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد فرض على عباده أداء الصلاة فى أوقاته المعروفة .. فكم من عارف بالحقيقة .. يرى أن الصلاة من نعم الله على عباده .. فليكثر من هذه النعم .. فإذا كانت الصلاة .. هى المثول بين يدى الله .. فمن منا لا يريد أن يظل دائماً وأبدا بين يدى الله .. فإذا أشغله أمر من أمور الدنيا .. أو عرض له قضاء من حاجاته المعيشية .. وجب عليه بعد الانتهاء منها .. العودة سريعاً إلى مكانه .. الجميل .. مكانه الطيب .. بين يدى الله .. لقد استوعب البعض الآيات الشريفة :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(١٤ — ١٥ سورة الاعلى)

فمن منا لايريد أن يتزكى ؟ إن المتصوف هو من تزكى ..
إذ إنه ما ذكر اسم ربه إلا صلى .. وإنما هو فى ذكر لإسم ربه ..
فهو دائماً .. على صلاة .. إذا استشعر نعمة الله عليه .. شكره
فذكره .. فصلى .. وإذا غفل لحظة .. استغفر .. فذكره .. فصلى
وإذا أراد أن يسبح .. ويهلل .. قام .. فصلى ..

ويصوم الإنسان شهر رمضان .. ليستجلب لنفسه ما فى الصوم من خير له ولغيره .. فالصوم يهذب نفسه ويربى روحه .. ويدفعه جوعه إلى البر بالفقراء .. والعطف على المساكين .. لذلك وجب على كل إنسان فى صومه أن يحرص على تحقيق هدف الصوم .. وإلا فلماذا يصوم ؟ .. فمن لم يهذب الصوم من نفسه .. ويرفع من روحه .. ويثير فيه الرحمة .. والشفقة .. فيجزل العطاء .. ويعطى بسخاء .. فهل أدى ما فرضه الله من صوم .. إن الله يهدف إلى خير العبد .. والمجتمع .. فمن لم يحقق هذا الخير .. فكأنه ماصام .. وما صلى وعلى قدر اجتهاد العبد فى صومه .. وعلى قدر تصرفه طوال صومه .. يكون درجة أدائه لما فرضه الله عليه .. فالصوم عبادة .. تبدأ من قبيل الفجر حتى الغروب .. فعلى أى حالة يكون الإنسان فى هذه الفترة التى يؤدى فيها العبادة .. هل على ما يجب ؟ فيكون قد أداها أم على غير ما يجب .. فيكون كالمقلد الذى لايعى ما يفعل أويقول؟

والمتدبر لأمر الرزق يجده عجيباً وغريباً . . فحقاً وصدقاً الله يرزق من يشاء بغير حساب . . وكل أرزاق الناس هى من الله . . فالأرض وما تنتجه . . والسماء وما تجود به . . والحيوانات والطيور وكل ما يتجر به العباد . . وكل ما يستخدمونه أويرتزقون به . . كله من خلق الله وتدبيره . . ومهما فاض على إنسان رزقه . . ومهما ضاق على آخر . . فان النتيجة الحتمية واحدة . . سيخرج هذا وذاك . . من الدنيا . . بلا مال . . مهما جمعه . . وبلا فقر مما كان فيه . . ترك الغنى ماله . . وهجر الفقير فقره . . وسيحاسب الغنى عما ترك . . وسيجزى الفقير لوكان صبر . . فلو تدبر الإنسان لوجد أن ما عنده مال هو فرصة يشترى بها ثواب الآخرة . . ولذلك فقد أوجب الله على كل إنسان أن يخرج زكاة محددة من ماله يعطيها للفقراء والمحتاجين . . وهذا القدر المحدود هو أقل ما يجب على الإنسان أن يخرجه . . ثم دعا الله عباده إلى أن ينفقوا حتى تدور عملية المال من يد إلى أخر . . وطلب منهم أن يتصدقوا . . وأن يعول الغنى الفقير . . وأن يساعد من عنده من هو فى حاجة إلى بعض ما عنده . . فمن أدى الزكاة التى فرضها الله الله جل شأنه . . وتصدق وأنفق على من وجبت عليه الإنفاق . . فقد أدى ما أوجبه الله عليه . . أما من فتح الله عليه بصيرته . . وفاض عليه ببعض الحقيقة . . رأى أن ما عنده من مال . . قد يكون العذاب والعقاب . . وقد يكون الأجر والثواب . . لذلك رأينا الأنبياء والرسل . . يتحللون دائماً . . مما يجتمع عندهم من مال . . وما مات رسول أونبى . . ووجد عنده شيئاً . . وكذلك من سار على نهجهم ومن اهتدى بهديهم . . فنجد أن كل من سار فى طريق التصوف . .

عرف الحقيقة .. إن ما عنده من مال .. هو مال الله .. والخلق جميعاً عباد الله .. فمن احتاج من عباد الله إلى مال الله .. جرى على يد المتصوف هذا الخير .. إيماناً منه .. بأن هذا حق الله .. واجب الأداء

ويحج الإنسان بيت الله الحرام .. وكل هامة ارتفعت فى الدنيا تنخفض وتنحنى إجلالا وتقديساً وتعظيماً لبيت الله وكل غنى اتجه إلى البيت .. تجرد من كل عرض من أعراض الدنيا .. ودخل البيت عباد الله .. على هيئة واحدة . لافرق بين الغنى والفقير .. ولا الأمير أو الصغير .. كل عين قاسية تدمع .. وكل نفس جامدة تخشع .. وكل قلب متحجر يخضع .. ويعود الناس بعد الحج .. فمنهم من ينسى ماكان منه .. وماكان عليه .. ومنهم من يصل إلى الحقيقة .. إن هذا الكون بما فيه يشير إلى خالقه .. الله سبحانه وتعالى وهو فى كل شىء معهم أينما كانوا .. لذلك لايتبدلون ولايتغيرون .. ويظل العبد منهم على صلة بربه .. وكأنه .. كما كان فى بيته .. يتصرف كما يتصرف عندما كان .. هذا هو المتصوف .. الذى عرف .. أن الله فى كل مكان .

وهكذا يؤدى من أراد السلوك فى طريق التصوف العبادات كما يجب أن تؤدى .. بقلب واعى .. ونفس عارفة .. قد تأكد أن الدنيا فرصة للعبادة .. وأنه ماخلق إلا ليعبد الله .. فلا يعمل إلا أن يعبد وفى كل ما يعمل .. لايبتغى إلا أن يعبد .. فان اشتغل ليكسب .. حتى يقوم بما أمره الله به .. وحتى يحصل على المال الذى يعطيه لمن لايستطيع أن يعمل ويحتاج إلى المال وهو يتحرى فى كل ما يصل إليه

من مال .. الحلال .. كل الحلال .. الطيب كل الطيب .. بلاشبهة فى ماله .. وبلا شائبة فى ربحه ..

ويعيش الإنسان حياته فى جهاد ومجاهدة .. فهو يجاهد نفسه النزاعة للهوى .. ويجاهد الشيطان الذى يحاول جاهداً أن يضله وأن يصرفه عن طريق الخير .. ويجاهد غيره من الكفار الذين يحاربون الله ورسوله .. ويجاهد من يطغى على حقه .. أويسلب حق غيره .. ولاشك أن النفس تدفع صاحبها دائماً إلى كل رذيلة .. وتميل إلى كل ماهو باطل .. فكل حرام له شكل خلاب . وله طعم جذاب .. لأن الشيطان قد زينه وجمله كذباً وغشاً للنفس وهذا ما توعد به الشيطان الناس وقد وجه القرآن الكريم تنظر العباد إلى ذلك فى النص الشريف :

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُم فى الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُم أَجمَعِينَ)

(٣٩ سورة الحجر)

كما زين للناس حب الشهوات من النساء والأولاد والمال وكل متاع الدنيا كما قال القرآن الكريم فى النص الشريف :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ المَآبِ)

(١٤ سورة آل عمران)

لذلك فإن جهاد النفس من أشق الجهاد .. أن تجاهد نفسك حتى تحب لأخيك ما تحبه لنفسك وأن تجاهدها لتتحلل من كل شبهة .. ولا تجعل الدنيا تسيطر على الإنسان بما فيها .. لذلك فقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته حين انتهى من حرب الكفار واستتب الأمر للإسلام والمسلمين أنهم رجعوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فلما سألوه وما هو الجهاد الأكبر يارسول الله قال جهاد النفس .. فكلما جاهد الإنسان نفسه وتغلب عليها كلما كان فى طريقه إلى الله .. وإذا ما دعى الداعى أن دين الله قد بغى عليه .. وجب على كل إنسان أن يهب ليدافع عن دين الله .. بنفسه وماله .. وما يملك ..

والجهاد قد أمر الله به سبحانه وتعالى أمراً صريحاً فى كثير من سور القرآن الكريم الشريفة فتقول الآيات الكريمة :

(لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا)

[٩٥ سورة النساء]

(الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِم وَأَنفسِهِم أعظمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ وأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ)

(٢٠ سورة التوبة)

ولايكفى أن يجاهد الإنسان .. مجرد الجهاد .. بل يجب أن يجاهد حق الجهاد .. وكلما خلص فى جهاده وضاعف من بذله .. وتضحياته فى جهاده .. كلما كان قربه من الله سريعاً .. وكثيراً .. فالجهاد هو طريق إلى الله وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنَا وَإِن اللهَ لَمَعَ المُحسِنِين)

(٦٩ سورة العنكبوت)

ومن أهم ما يحرص عليه الداخل فى طريق الصوفية بعد أن تاب إلى الله التوبة الصادقة .. وأقام أركانها وتحرر من آثار ذنوبه .. وأقبل بهمة وصدق على العبادة .. الذكر .. فالذكر ثناء ودعاء .. وتكبير وتهليل وتسبيح .. وهو تأمل وتفكر وتوحيد وهم فى ذلك يستجيبون لداعى القرآن الكريم الذى يأمر بالذكر الكثير بالنص الشريف :

(وَاذكُرُوا اللهَ كَثِيرًا)

(١٠ سورة الجمعة)

وأنه يجرى اسم الله على اللسان بالدعاء والحمد بالنص الكريم :

(واذكُر اسم رَبك وتَبَتَّل إليه تبتيلاً)

(٨ سورة المزمل)

ويعتبر الصوفية الذكر أعلى فى منزلته من الصلاة استناداً إلى ماجاء فى القرآن الكريم فى النص الشريف :

(اتلُ ماأُوحِيَ إليكَ مِن الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إنَّ الصَّلَاةَ تنهَى عَنِ الفَحشَاءِ وَالمُنكَرِ وَلَذِكرُ اللهِ أَكبَرُ)

(٤٥ سورة العنكبوت)

بل وأفضل من الأعمال كلها كما جاء فى حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والورق وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ .. قالوا ماذاك يارسول الله ؟ .. قال ذكر الله تعالى) .

وللذكر آداب يجب مراعاتها .. فالإنسان حين يذكر الله .. إنما وكأنه يطلب الوقوف بين يديه .. فوجب أن يكون على الحالة التى تناسب هذا المقام .. وأن يكون متجهاً بقلبه وجوارحه إلى من

يناديه :.. وإذا كان الإنسان يبدأ الذكر بلسانه :: حتى . . يصل إلى الذكر بقلبه ولسانه . . ثم يعقد لسانه عن الذكر ليستمر قلبه وحده على الذكر حتى تفيض عليه . . أنوار الذكر وتشرق عليه آياته . . وهذا يختلف فى شكله وجوهره . . عما يؤديه البعض من تمايل وحركات على أنغام الموسيقى وكأنه من الرقص الذى يفقد الذكر . . هيبته . . ويبعد الذاكر عن هدفه . .

إن الهدف هو أن يرسل الإنسان نفسه . . مع خالقها . . ويجاهد أن يكون على حالة تؤهله إلى هذا الاسترسال

ولذلك يقول أئمة التصوف :

(التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد) .

(ابو محمد رويم)

(التصوف صفاء الأسرار وعمل ما يرضى الجبار وأن تسقط الاختيار مع انك تصحب الخالق) .

(الدينورى)

(التصوف الإخلاص فى مراعاة الحقيقة واتباع النبى صلى الله عليه وسلم فى الشريعة) .

(الجنيد)

وهكذا فإن التصوف عبادة ومجاهدة .. وقد دعانا الله إليها بالنص الشريف :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسجُدُوا وَاعبُدُوا رَبَّكُم وَافعَلُوا الخَيرَ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جِهَاده هُوَ اجتباكُم ومَا جَعَلَ عَلَيْكُم فى الدِّين مِن حَرَجٍ مِلَّةَ أَبيكُم إبراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُم المُسلِمِينَ مِن قبلُ وَفى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيكُم وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَولَاكُم فَنعمَ المَولَى ونِعمَ النَّصيرُ) .

(٧٧ — ٧٨ سورة الحج)

والتصوف محبة ..

إن هدف التصوف . . المحبة . . محبة الله عز وجل . . وإن طريق التصوف . . هو المحبة فالتصوف غايته المحبة . . ووسيلته المحبة . . إن السالك فى الطريق . . عندما يبدأ فى التعرف على الله . . التعرف الذى تتفتح له به أبواب العلم به . . نجد محبة الله تفيض عليه . . وكلما ازداد فى الطريق سلوكاً . . كلما ازداد لله حباً . . فالطريق يوصله إلى الحب . والحب يدفعه فى الطريق . . ويظل من الحب . . وبالحب . . وللحب هائماً مندفعاً . . وهيهات . . لمن استشعر الحب . . ألا يطلب المزيد . . بل والمزيد عليه . .

ويقول الإمام الغزالى (المحبة هى الغاية القصوى من المقامات . . والذروة العليا من الدرجات . . فما بعد المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها . . وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وإخواتها . . ولاقبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها) .

ولقد تكلم كل صوفى . . عن حب الله . . إما مناجياً أو مناديا . . أو داعياً . . أو طالباً . . أو هائماً . . أو مفسراً . . فمن أقوالهم :

(حقيقة المحبة أن تهب كلك من أحببت فلايبقى لك منك شىء) .

(ابو عبد الله القرشى)

(سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب كل ماسوى المحبوب).

(الشبلى)

(من المحال أن تحبه ثم لاتذكره ومن المحال أن تذكره ثم لايوجدك طعم ذكره ومن المحال أن يوجدك طعم ذكره ثم يشغلك بغيره) .

(ابو حمزة البغدادى)

(إن كنت تحب أن تكون لله ولياً وهو لك محباً فدع الدنيا والآخرة ولاترغبن فيهما وفرغ قلبك منهما ، وأقبل وجهك على الله يقبل الله بوجهه عليك ويلطف بك .. فإنه بلغنى أن الله تعالى أوحى إلى يحيى ابن زكريا عليهما السلام : يايحيى قضيت على نفسى ألا يحبنى عبد من عبادى أعلم ذلك منه ، إلا كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى يتكلم به وقلبه الذى يفهم به ، فكلما كان كذلك بغضت إليه الاشتغال بغيرى وأدمت فكرته وأسهرت ليله وأظمأت نهاره) .

(ابراهيم بن ادهم)

ويصف الجنيد المحب لله فيقول :

(عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هويته وصفاء شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه .. فاذا تكلم فبالله .. وإن نطق فعن الله .. وإن تحرك فبأمر الله .. وإن سكت فمع الله .. فهو بالله ولله ومع الله) .

ويناجى ذو النون ربه يطلب أن يذيقه طعم محبته فيقول :

(إلهى لاتترك بينى وبين أقصى مرادك حجاباً إلا هتكته ولاحاجزاً إلا رفعته ولاوعراً إلا سهلته ولابابا إلافتحته .. حتى يقيم قلبى بين

ضياء معرفتك وتذيقني طعم محبتك . . فيامن أسأله إيناساً به وإيحاشاً من خلقه ، ويامن إليه التجائى فى شدتى ورخائى ، ارحم غربتى وهب لى من المعرفة ما أزداد به يقيناً ولاتكلنى لنفسى الأمارة بالسوء طرفة عين) .

ولقد كان للصوفية فى حب الله سكرات وجذبات وشطحات . . منها ماظهرت آثارها عليهم . . فى أحوالهم وقيامهم وقعودهم . . ومنها ما وضحت فى أقوالهم . . ولاشك أن طعم الحب لايعرفه إلا من تذوقه . . فمن شرب المحب من كأس الحب . . الذى ارتضاه له حبيبه فإنه تنتابه حالة تجعله يعيش الوجود بحالة على غير حالته وبحقيقة تخالف هيئته . . إنه يعيش فى نعيم مقيم . . وإدراك سليم . . وأمر عظيم . وعندما يدخل السالك فى دائرة حب الله . . يجعل له من جذب الحب جذبات . . فهو من سكرات إلى جذبات . . فإذا تكلم فبألفاظ يريد بها بيان ما استشعره فى مشاهداته ومكاشفاته . . فتخرج عابرات لايفهمها سواه . . وينكرها غيره . . إذ يتوهم من يسمعها أن هناك اتحاد تم بين المحب . . والمحبوب . . أوحلول للمحبوب فى المحب . . . وذلك ما يسمونه بالشطحات . .

إن حب الصوفية لله . . حب نقى من الغرض . . بعيد عن أى جزاء . . لايطمع الصوفى المحب فى الجنة ولايذكر النار . . إنما هو . . من يريده . . وحبه ما يطلبه . . بلا سبب . . وبلاجزاء . . فهذه رابعة العدوية تظل طوال ليلها يقظة . . تتقلب على فراش السهد . . تناجى ربها . . وتجيل السماء ببصرها . . والوجود بقلبها . . وتقول :

(إلهى أغرقنى فى حبك حتى لايشغلنى شىء عنك .

إلهى أنارت النجوم :: ونامت العيون :: وغلقت الملوك أبوابها .
وخلا كل حبيب بحبيبه :: وهذا مقامى بين يديك .

إلهى :: هذا الليل قد أدبر :: وهذا النهار قد أسفر .. فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ :: أم رددتها على فأعزى ..

فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى وعزتك لوطردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك .

إلهى :: اجعل الجنة لأحبائك :: والنار لأعدائك .. أما أنا فحسبى أنت) .

وسئلت يوماً عن عبادتها فقالت :

« ما عبدته خوفاً من ناره :: ولاحباً لجنته .. فأكون كالأجير السوء بل عبدته حباً له :: وشوقاً إليه » .

وناجيت ربها يوماً فقالت :

(إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فأحرمنيها وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلاتحرمنى ياإلهى من جمالك الأزلى)

وإذا مافاض بقلب الصوفى حب الله .. بحيث فرغ منه كل ماسواه :: وما طلب فى حياته أوبعد مماته :: ولافى بعثه ونشوره ..
سوى الله :: وحبه :: تكشفت له حقائق كثيرة .. منها أن الخلق هم أحباب الله .. الذين خلقهم .. فهو يحبهم .. لذلك يحبهم

الصوفى . أكثر مما يحب نفسه . ويرى أن فى حبه لهم . بعض الطريق لحب الله . . لذلك نجد أن بعض الصوفية قد قالوا فى عبارات جميلة ما يؤكد زيادة حبهم للناس عن حبهم لأنفسهم فقد سمع النورى وهو يناجى ربه بقوله :

(رب قد سبق فى علمك القديم وإرادتك أن تعذب عبادك الذين خلقتهم فإذا اقتضت إرادتك أن تملأ جهنم من الناس فاملأها بى وحدى)

وقال أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الرازى :

(لوعلمت أن الله يعذبنى بدل جميع من آمن به ويدخلهم الجنة وجدت من قلبى الرضا به) .

ويرى الصوفية أن حب الإنسان لله ليس من درجة واحدة ولا بسبب واحد . فهناك حب من الإنسان لله لأنه صاحب النعم عليه . وواهب الحياة والفضل له . . فالله خالق الإنسان من عدم . ومن فناء أوجده . وهذه نعمة تجل عن الوصف . وفضل لايتخيله عقل ثم أنعم عليه بالسمع والبصر والإدراك . وصوره فى أحسن صورة وجعله فى أفضل تقويم . . ورزقه من الأرض والسماء . مهد الأرض وأنزل الماء . وخلق الحب . . وأنبت الحرث . أودع فى باطن الأرض . كل ما يحتاج إليه الإنسان فى حياته . ليكون قريباً من مطلبه . وفى متناول يده . ومهما تناسل الإنسان وزاد عدده . فإن رزق الله يمتد ويتزايد ليشمل الجميع ويكفى الكل . ترى كم يجب أن يحب الإنسان الله . والإنسان يحب أبيه . ويحب أمه . يحب زوجته . ويحب أولاده . يحب صديقه . يحب ماله .

وهكذا يعيش الإنسان فى سلسلة طويلة متصلة من الحب . . تبدأ بمولده وتنتهى بموته . . عندما يحس أنه يحب الحياة كلها . . مهما كان مافيها فهل تفكر الإنسان كم يجب أن يحب . . من وهب له كل ذلك . . ولقد سبقت محبة الله للإنسان . . فإنه يحبه . . لأنه خالقه . . فهل خلق الله الإنسان أى إنسان . . إلا لأنه يحبه . . فإنه خالقه . . بإرادته ومشيئته . . ورغبته . . وما كان ليخلق . . إلا ما يحبه . . فالله يحب الإنسان . . أفلا يحب الإنسان الله . . أسباب متعددة . . كلها توجب أن يحب الإنسان الله . . وإلى درجة لاتنتهى عندها محبة . . بل تتزايد وتستمر وتفيض . . ولكن الصوفية يتركون الأسباب . . ويحبون الله . . لأنه هو المحبوب . . الواجبة محبته . . لذاته . . وهذه المحبة . . هى التى توصلهم إلى المكاشفة والمشاهدة . . فحبهم هو الحب الأسمى الكامل . . أحبوه لأنه من يجب أن يحب . . وهم لذلك يحبون ما يجب . ويجتهدون فى أن يكونوا دائماً . . فى حضرة محبوبهم . .

ولما كان التصوف علم ومعرفة، وعمل وسعى، وعبادة ومجاهدة . . فإن الرسل والأنبياء هم أكثر الناس معرفة بالله عن طريق ما علمهم به الله . . وما سعوا إليه وجاهدوا فيه . . ولذلك فلقد انبثقت فى قلوبهم المحبة ففاضت بمحبة الله قلوبهم . . ونفوسهم وعقولهم ووجدانهم . . إنهم يحبون الله . . كما يجب أن يحبه العباد . . واعتكاف الرسل والأنبياء . . هو محاولة منهم . . لقضاء الوقت مع المحبوب . . دون أن يؤثر على وجودهم . . ما يشغلهم عنه . . فهم فى خلواتهم . . يحاولون الوصول إلى درجة الفناء . . مع المحبوب بالحب . . وهكذا كان

حال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قبل البعثة حيث كان يختلى فى الغار ويقول الإمام الغزالى :

(المحبة أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تبتّل حين أقبل إلى جبل حراء حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب إن محمداً قد عشق ربه) :

وحين دعا القرآن الكريم إلى محبة الله . . جعلها أمراً مفروضاً . . واجباً أكيداً . . وقرر أنها من الحقائق التى يعيش بها ولها الإنسان . . إلا أن الناس تتفاوت فى قدر هذه المحبة . . فكل الناس يحبون الله . . لاشك ولكن منهم من يحب غير الله كحب الله ، وهذا ظلم عظيم . . له عذاب شديد أما المؤمنين فإنهم يحبون الله أشد ما يكون الحب وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(وَمِنَ النَّاسِ من يَتَّخِذ مِن دونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهم كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ وَلَو يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إذ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القوَّةَ للهِ جَميعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيد العَذَابِ) .

(١٦٥ سورة البقرة)

ويدعو الإسلام إلى حب الله . . ويبين القرآن الكريم الدرجة التى يجب أن يكون عليها حب الإنسان لله . . يحبه أكثر مما يحب غيره على الإطلاق . . إذ لابد أن يحب الله أكثر مما يحب أبيه أوابنه أوأخيه أوزوجته أووطنه أوماله أو أى عرض من أعراض الدنيا من تجارة أومساكن . . وهذا هو الحق كل الحق . . فأنت إن أحببت شيئاً من ذلك

وجب عليك أن تحب مصدره أكثر مما تحبه .. وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم :

(قل إن كَانَ آباؤُكمُ وَأبنَاؤكم وَإخْوَانكم وَأزوَاجكم وَعَشِيرتكم وَأمْوَالٌ اقترَفتمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخشَوْنَ كَسَادهَا وَمَسَاكِنُ تَرضَونَها أَحَبَّ إِليكم مِن اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَاد فِى سَبِيلهِ فَتَربَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمرِهِ وَاللهُ لا يَهدِى القَومَ الفَاسقِينَ) .

(٢٤ سورة التوبة)

وحب الله للإنسان مما قرره القرآن الكريم كحقيقة مؤكدة .. توجب أن يحب الإنسان الله . . وهذا ما أوردته الآية الشريفة :

(يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا مَن يَرتدَّ مِنكم عَن دِينِهِ فَسَوفَ يَأْتِى اللهُ بقَوم يُحبُّهم وَيُحِبُّونَه أذِلَّة على المُؤْمِنِينَ أعِزَّة عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافونَ لَومَةَ لَائِم ذَلِكَ فَضل اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ واللهُ وَاسعٌ عَلِيمٌ) .

(٥٤ سورة المائدة)

والآية صريحة إذ تقرر أن الله يحب الناس .. وأن من يحب الله من الناس فقد أوتى فضل الله . . وأن حب الله للناس سابق لحبهم له .. ففى الآية يحبهم تسبق يحبونه .

وتتوالى الآيات الشريفة فى القرآن الكريم التى تؤكد حب الله للناس إذ تقرر أن الله يحب المحسنين بالنص الشريف :

(وَأَحسِنوا إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُحسِنِينَ) .

(١٩٥ سورة البقرة)

وأنه يحب التوابين :: كما يحب المتطهرين كذلك بالنص الكريم :

(إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِرِينَ) .

(٢٢٢ سورة البقرة)

ويحب الله المتقين بالنص الشريف :

(بَلَى مَن أَوفَى بِعَهدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ) .

(٧٦ سورة آل عمران)

ويحب الله الصابرين بالنص الكريم :

(وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) .

(١٤٦ سورة آل عمران)

كما يحب المتوكلين بالنص الشريف :

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ) .

(١٥٩ سورة آل عمران)

ويحب الله المقسطين وذلك من النص الكريم :

(وَإِن حَكَمْتَ فَاحكم بَينَهم بِالقِسطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُقسِطين)

(٤٢ سورة المائدة)

كذلك يحب الله كل الذين يقاتلون فى سبيله صفاً واحداً بالنص الشريف :

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِه صَفًّا كَأَنَّهم بُنْيَانٌ مَرصوصٌ)

(٤ سورة الصف)

كما وردت فى آيات أخرى نصوص يستفاد منها حب الله للناس لأسباب وأن بعكسها لايحبهم الله جل شأنه فمن لم يطع الله ورسوله فإنه من الكافرين والله لايحب الكافرين .. وبذلك من أطاع الله ورسوله يحبه الله وهذا ما تقرره الآية الشريفة :

(قل أَطِيعوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ)

(٣٢ سورة آل عمران)

وإذا كان الله لايحب من كان مختالا فخوراً بالنص الشريف :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كانَ مُختَالاً فَخورًا) .

(٣٦ سورة النساء)

فانه بذلك يحب من كان غير متعال على الناس قليل التمدح فى نفسه ولأن الله جل شأنه لايحب المفسدين فى الأرض بأى صورة كان الإفساد بالنص الكريم :

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ المُفسِدِينَ) .

(٦٤ سورة المائدة)

فإنه يحب المصلحين .. أيا كان الإصلاح .. وعلى أىّ وجه كان وبأى درجة طالما هى قدر طاقة الإنسان .. وكذلك يحب الله الأمناء لأنه لايحب الخائنين بالنص الشريف :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ) .

[٥٨ سورة الانفال]

ويحب الله المتواضعين لأنه لايحب المستكبرين بالنص الكريم :

(إنه لَا يُحِبُّ المُستَكبِرينَ) .

[٢٣ سورة النحل]

وهكذا يعدد القرآن الكريم الأسباب التى تجلب للناس محبة الله لهم . . وهى كثيرة ومتعددة هادفاً إلى بيان الحقيقة المؤكدة التى تقرر أن الله يحب الناس . . ولكنهم فى حياتهم يتصرفون بما يحرمهم من هذه المحبة . . وهذه المحبة من الله للناس . . ولما وهبه الله للناس . . توجب محبته . . وتتفاوت فى قدرها الناس . . ولكن يشغل الصف الأول منهم فى شدة حبه . . الرسل والأنبياء ثم الصوفية والأتقياء .

إن الطريق الذى يصل به الصوفية إلى بغيتهم . . ويحلقون منه . . إلى منتاهم . . ويشاهدون فيه . . ومنه هو طريق المحبة . . فالتصوف محبة . . وطريقه معروف . . فهو علم ومعرفة . . وسعى وعمل . . وعبادة ومجاهدة . . ومحبة .

(قل إن كنتم تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحبِبْكُمُ اللهُ وَيَغفِر لَكُم ذُنُوبكم وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيم) .

[٣١ سورة آل عمران]

الوصول ودرجاته

يقرر القرآن الكريم أن لله عبادا اصطفاهم من الخلق وذلك بمثل النص الشريف :

(ثم أورثْنا الكتابَ الذين اصطفينا من عبادنا) .

(٣٢ سورة فاطر)

(وإنهم عندنا لمن المصطفَيْن الأَخيار)

(٤٧ سورة ص)

وإنه يمكن للإنسان عن طريق المجاهدة والاجتهاد أن يصبح من الواصلين أى من المقربين الذين يقول عنهم القرآن الكريم :

(والسابقون السابقون . أولئك المقرَّبون) .

(١٠ - ١١ سورة الواقعة)

فهناك وسيلة يمكن للإنسان أن يتخذها سبيلا للوصول وذلك بالنص الشريف :

(أولئك الذين يَدْعُون يبتغون إلى ربهم الوسيلَةَ أيُّهم أقرب) .

(٥٧ سورة الاسراء)

ولذلك هدفت الصوفية إلى الوصول

وأول درجات الوصول فى الصوفية : هى المعرفة . وهى أول الطريق إليها كذلك . والمعرفة التى يحرص عليها الصوفى . وينشدها : ويبحث عنها : ويلازم كل الطرق التى توصله إليها : هى المعرفة القلبية . فكل عمله دينى أودنيوى : إنما يجتهد فيه لينال المعرفة القلبية : بهذه المعرفة تتجمد حواس الصوفى كلها : فى القلب :

فإن رأى أوسمع أوعقل : : فبقلبه . . لقد أصبح القلب ولا غيره : : فهو الذى تم للصوفى به كل معرفته . . وتتحقق له به ما تحققه الحواس كلها . . فالقلب هو مركز الحس . . والإدراك والوعى والعلم والمعرفة بل هو طريق العقل والإبصار أيضاً وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعقِلُونَ بِهَا أَو آذَانٌ يَسمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعمَى الأَبصَارُ وَلَكِنْ تَعمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

(٤٦ سورة الحج)

كما أن القلب أيضاً هو طريق السمع : : السمع الذى يستجيب الإنسان له . . إذ تقول آيات القرآن الكريم :

(وَنَطبَعُ عَلَى قلوبهِم فَهم لَا يسمَعونَ) .

(١٠٠ سورة الاعراف)

وهو سبيل الفهم بالنص الكريم :

(وَطَبِعَ عَلَى قلوبِهِم فهم لَا يَفقَهُون) .

(٨٧ سورة التوبة)

والقلب مكان التصديق أوالتكذيب : . فقد هدى الله قلب كل من آمن به بالنص الشريف :

(وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلبَهُ) .

(١١ سورة التغابن)

أما من كفر فقد احتل الكذب والتكذيب قلبه بنص الآية الكريمة :

(كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) .

(٢٠٠ سورة الشعراء)

ولذلك أنزل الله سبحانه وتعالى وحيه على قلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ تقول آيات القرآن الكريم :

(وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) .

(١٩٢ — ١٩٤ سورة الشعراء)

ولهذا يحس الدارج فى الطريق أن الله سبحانه وتعالى يفيض عليه من علمه فيصل إلى قلبه مباشرة . . قد يعلمه بغير أن يسير فى طريق العلم والتعلم المعروف . . فتفتح لمثل هؤلاء أسباب العلم والمعرفة دون أن يكون لديهم سابق محاولة حتى لمجرد بداية العلم والمعرفة . . هذا العلم اللدنى . . إنما يوحى به الله سبحانه وتعالى لمن شاء من عباده . . وبه ينال العبد ذروة العلم والمعرفة التى قد تتحقق لبشر . . وضرب لنا الله سبحانه وتعالى المثل للفارق بين العلم المكتسب من اجتهاد الإنسان . . وبين العلم اللدنى الذى أراده الله لعبده . . علم سيدنا موسى رسول الله . . وعلم سيدنا الخضر وهو عبد لم ينل حظه من علم أو معرفة . . ففاق علم موسى فى زمانه . . فلقد التقى موسى وفتاه برجل . . فاق علمه علم الآخرين دون أن يظهر عليه ما يميزه عن غيره وظل موسى وفتاه يناقشانه . . وكلما امتدت المناقشة كلما بدت الحقيقة واضحة وهى قلة علم سيدنا موسى بالقياس لعلم هذا الرجل . . حتى أنه طلب منه

أن يصحبه بل ويتبعه : كما يتبع التلميذ أستاذه .: والمريد شيخه .. وحتى هذا استكثره الرجل على موسى .: فكيف كان علمه .. إن آيات القرآن الكريم لتقص على الناس قصة العلم اللدنى الذى يفتح الله به على عباده دون حتى ابتداء منهم له بالنص الشريف :

(فَوَجَدَا عَبدًا مِّن عِبَادِنَا آتَينَاهُ رَحمَةً مِّن عِندِنَا وَعَلَّمنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَل أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشدًا . قَالَ إِنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرًا . وَكَيفَ تَصبِرُ عَلَى مَا لَم تُحِط بِهِ خُبرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعصِي لَكَ أَمرًا . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعتَنِي فَلَا تَسأَلنِي عَن شَيءٍ حَتَّى أُحدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكرًا) .

(٦٥ — ٧٠ سورة الكهف)

وعلى هذه الاشتراطات من سيدنا الخضر تبعه موسى .. وعندما ركبا سفينة ليرحلا بها علم سيدنا الخضر بما علمه الله .. ما جعله يخرق السفينة مما أثار سيدنا موسى .. فسأله واستنكر ما فعل وذكره الخضر بالشروط .. فلجأ إلى الصمت .. وهنا قابلا غلاماً صغيراً فما كان من سيدنا الخضر إلا أن قتل الغلام .. إدراكاً منه لما علمه الله .. من علمه .. وغضب سيدنا موسى .. وعاد سيدنا الخضر ليذكره بما اتفقا عليه من عدم سؤاله عما يفعل .. فلما دخلا إلى قرية .: أساءت استقبالهما ولم تؤديا واجب الضيافة لهما .. فوجد سيدنا الخضر فى القرية جداراً متداعيا .. يكاد ينقض .. فأقامه .. وتعجب منه

سيدنا موسى .. وهنا طلب سيدنا الخضر من سيدنا موسى .. أن يفترق عنه .. فهو كثير السؤال .. دائم الملاحظة .. مما يؤكد قلة علمه إذا قيس بعلم سيدنا الخضر .. ثم أخبره بما كان منه .. مما يظهر قدر علم الله الذى أعطاه لسيدنا الخضر فتقول آيات القرآن الكريم :

(قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْرًا . أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) .

(٧٨ — ٨٢ سورة الكهف)

ويعلم الله الإنسان إذا ما اجتهد فى التحصيل واتخذ لنفسه من الأسباب ما يجعله مستعداً لتلقى المزيد من العلم بأن يتقى الله سبحانه وتعالى حق التقوى وبذلك يثبت الله سبحانه وتعالى ما يحصله العبد من علم فى قلبه .. ويفتح له به .. أبواب المعرفة الواسعة .

فعندما يدرس العبد أى علم .. يجعل الله تحصيله سهلا .. وهيناً ومريحاً .. وثابتاً .. مما يجعله يواصل التحصيل والدرس وإذا انتقل

إلى دراسة أخرى فإنه يجدها سهلة عليه :: مستساغة منه :: قريبة له . :ثم تتفتح له آفاق التقدم العلمى :: بأن يوحى الله إليه :: بما يحتاج إليه :: وبما يبحث عنه :: وكلما اجتهد فى العلم :: كلما وجد من الله المزيد من الفتوح العلمى :: والعطاء فى المعرفة :: ولابد من أن يكون الطريق بين العبد وبين الله :: متصلا :: واسعاً :: نظيفاً :: صالحاً :: للتلقى :: ولهذا فإن التقوى :: أمر لابد منها :: حتى يتلقى الإنسان العلم من الله :. ولهذا فإن الأتقياء من المسلمين الأول :: عندما سلكوا طريق التصوف :: وجلسوا للدرس والبحث العلمى :: توصلوا فى كافة العلوم والمعارف :: إلى مالم يصل إليه غيرهم فى زمانهم إذا ليس من العجب :: أن ينبغ الرجل الواحد منهم :: فى الطب :: والكيمياء :: والطبيعة :: والفقه :: والحديث :: والتفسير :: ثم يكون من شيوخ التصوف :: ولو سلك المسلمون الآن مسلكهم بالبحث والدراسة والتقوى والتصوف :: لفاقوا العالم :: وسادوا كل علمائه ، فان التقوى هى مفتاح طريق العلم الذى يهبه الله للناس وذلك بالنص الشريف :

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

(٢٨٢ سورة البقرة)

هذه المعرفة القلبية :: هى التى يتم بها للصوفية الدخول فى الطريق فهى معرفة علوم أوحى الله بها لعباده :: فى قلوبهم :: وشتان بين

علم من الله . . وعلم من الناس . بين علم الله . . وعلم العبد . . ولذلك يقول الصوفيون عن علومهم .

(أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا علمنا من الحى الذى لا يموت)

وهذه المعرفة القلبية . . ثمارها . . الوصول إلى حقيقة التوحيد . . وهدفها .. الانتقال من درجة الباحث عن الله إلى العارف بالله .. فان كل علم ومعرفة . . يتدبر الإنسان فيها . . ويتعمق وينخرط لها . . ويتقى الله . . ارتقاءاً لفتوحه فيها يجد الإنسان نفسه به يصل إلى الحقيقة . وجود الله .. ووحدانيته وقدرته وعظمته.. ووجوب محبته.. بل إن كل شاردة وواردة . . وكل ما فى الأرض والسماء ليشير إلى ذلك ويدعو إليه . . ولقد وصل ذو النون إلى هذه الدرجة من المعرفة القلبية فنجده يقول :

(إلهى ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك

أنه ليس كمثلك شىء . . وأنك غالب لا تغلب . . وعالم لا تجهل وحليم لا تسفه . . وعدل لا تجور .

إلهى فإنى اعترفت لك بما دل عليه صنعك . . وشهد له فعلك . . فهب لى اللهم طلب رضاك برضاى . . ومسرة الوالد لولده بذكرك لحبى لك . . ووقار الطمأنينة وتطلب العزيمة إليك لأن من لم يشبعه الولوع باسمك ولم يروه عن ظمئه ورود عوزان ذكرك ولم ينسه جميع العلوم رضاه عنك . . ولم يقطعه عن الإنس بغيرك مكانه منك . . كانت حياته ميتة . . وميتته حسرة . . وسروره غصة . . وأنسه وحشة ،

إلهي لاتترك بيني وبين أقصى مرادك حجاباً إلا هتكته ولاحاجزاً إلا رفعته :: ولاوعراً إلا سهلته :: ولابابا إلا فتحته :: حتى يقيم قلبي بين ضياء معرفتك وتذيقني طعم محبتك :: فيامن أسأله إيناساً به وإيحاشاً من خلقه :: ويامن إليه التجائي في شدتي ورخائي ارحم غربتي وهب لي من المعرفة ما أزداد به يقيناً ولاتكلمني لنفسي الأمارة بالسوء طرفة عين) :

ويقول عن العارف :

(وعلامة العارف ثلاثة : لايطفىء نور معرفته نور ورعه ولايعتقد باطناًمن العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم :: ولاتحمله كثرة نعم الله عز وجل على هتك أستار محارم الله تعالى) ويقول أيضاً :

(لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر ربه) :

وثمار المعرفة كما يقول ذو النون :

(أن تعلم أن قدرة الله تعالى فيالأشياء بلا مزاج :: وصنعه للأشياء بلا علاج :: وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه :: وليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله وكل ما تصور في وهمك فالله بخلاف ذلك) :

ويقول العلامة الإمام الكلاباذى عن أحوال المتصوفين وعلومهم ومعارفهم :

(سبقت لهم من الله الحسنى :: وألزمهم كلمة التقوى :: وعزفت بنفوسهم عن الدنيا :: صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة وخلصت

عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم وأنارت أعلامهم فهموا عن الله وساروا إلى الله :: وأعرضوا عما سوى الله :: خرقت الحجب أنوارهم وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند ذى العرش أخطارهم وعميت عما دون العرش أبصارهم :: فهم أجسام روحانيون وفى الأرض سماويون ومع الخلق ربانيون سكون نظار :: غيب حضار ملوك تحت أطمار :: أنزاع قبائل :: وأصحاب فضائل وأنوار دلائل آذانهم واعية وأسرارهم صافية :: ونعوتهم خافية :: صفوية صوفية نورية صفية ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بريته ووصاياه لنبيه وخباياه عند صفيه :: هم فى حياته أهل صفته وبعد وفاته خير أمته . لم يزل يدعو الأول الثانى :: والسابق التالى بلسان فعله أغناه ذلك عن قوله) .

ويتدرج سالك الطريق فى المعرفة :: فيزداد فى كل يوم علماً ومعرفة تجعله أقرب إلى الله فيقول ذو النون :

(العارف كل يوم أخشع لأنه كل ساعة أقرب) .

إلى أن يصبح العارف واصلا :: فقد ورد فى أقوال الصوفية العارف الواصل كما قال أبو يزيد البسطامى :

(العابد يعبده بالحال والعارف الواصل يعبده فى الحال) .

والعارف بالله :: قد انفتحت له فى قلبه كل ينابيع الحب :: فهو بالحب سلك الطريق :: وبالحب عرف الله :: وبالحب تدرج فى المعرفة :: حتى يصل إلى درجة يشاهد فيها بقلبه أصل الجمال ::

فيفيض إحساسه بالجمال على كافة حواسه :: وتختلف أحاسيسه .. فيصبح على غير حالته :: وتختلف بذلك نظرته :: إنه يعيش فى حالة سكر :: بسبب مشاهدة جمال من يحب :: ويصف الكاشانى حالة السكر بقوله :

(السكر دهش يلحق سر المحب فى مشاهدة جمال المحبوب فجأة لأن روحانية الإنسان التى هى جوهر العقل لما انجذبت إلى جمال المحبوب بعد شعاع العقل عن النفس . . وذهل الحس عن المحسوس وألم بالباطن فرح ونشاط وهزة وانبساط لتباعده عن عالم التفرقة والتمييز وأصاب السر دهش ووله وهيمان دونه :: لتحير نظره فى شهود الجمال وتسمى هذه الحالة سكراً لمشاركتها السكر الظاهرى فى الأوصاف المذكورة :: إلا أن السبب لاستتار نور العقل فى السكر المعنوى غلبة نور الشهود وفى السكر الظاهرى غشيان ظلمة الطبيعة لأن النور كما يستتر بالظلمة يستتر بالنور الغالب :: كاستتار نور الكواكب بغلبة نور الشمس وصلنا فجأة :. لأن صدمة نور الجمال فى النظرة الأولى أكثر :: وفى النظرات بعدها :: تقل على التدريج لحصول الإنس) .

وبعد السكر :: تأتى مرحلة الصحو . . لقد استقر القلب وشاهد وعاين :: وعلم وعرف . وعادت إلى النفس حياتها وحالتها :: إلا أنها أصبحت بعد السكر وإن كانت على هيئتها السابقة :: إلا أن معرفتها قد تغيرت .. وإحساسها :: قد تبدل . . وعن حالة ما بعد السكر يقول الكاشانى :

(حتى إذا استقر تناول حال المشاهدة ورجع كل جزء من أجزاء الوجود إلى أصله عاد شعاع العقل إلى عالم النفس والحس وظهر التميز بين المتفرقات من المعقولات والمحسوسات وتسمى هذه الحالة صحواً) :

وفي هذه الحالات :: يقول الصوفية أن المُشاهِد في المُشاهَد :: وكما يقول الحلاج ينسى نفسه وما سوى الله . : فلو قلت من أين وإلى أين لم يكن غير قول واحد هو الله . . لقد ارتفع العبد إلى عالم غير العالم : : وإلى وجود غير الوجود . : وإلى آفاق انعدم فيها المكان والزمان : : فلم يعد هناك . . لم : : أو كيف : . لقد رأى وأحس وإذا تكلم : : عما شاهده أو أحسه . . استمعنا عجباً وأي عجب فما قاله أبو يزيد :

(طلقت الدنيا ثلاثاً ثلاثاً بتاتا لارجعة فيها : : وصرت إلى ربي وحدى : : فناديته بالاستغاثة : : يا إلهي : أدعوك دعاء لم يبق له غيرك. فلما عرف صدق الدعاء من قلبي والإياس من نفسي : : كان أول ما ورد على من أجابه هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية ونصب الخلائق بين يدى مع إعراض عنهم) :

ولما وجد أبو يزيد أن قدره قد سما بحيث وقف الخلائق بين يديه حث خطاه واستمر نحو الألوهية فاذا الحق يخاطبه (يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك فقلت : زيني بوحدانيتك والبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك : : قالوا رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون هناك) ثم دنا أبو يزيد فتدلى فإذا هو يقرب خيمته

بإزاء العرش ويتلاشى نهائياً فى حضن الألوهية وينطق سبحانى . ما أعظم شأنى) ..

وكل المتصوفة أقروا بأن السالك فى الطريق إذا ما وصل بالمعرفة القلبية إلى درجة الصفاء فى الحب انكشفت لهم أسباب المشاهدة لكل ما وراء الحجب والاستار فيقول الترمذى شارحاً وصول المعرفة القلبية والحب لله وآثرها :

(فمتى يصل القلب إلى الأنس بالله عز وجل والطمأنينة إليه والوله إلى عظمته وصفاء الحب له فهذا صدق المريدين والسائرين بالصدق إليه والطالبين له فى منازل القربة .. فينبغى أن يبقى كل فرح للنفس فيه لصيب حتى يصل إلى ربه تعالى فاذا وصل إلى ربه عز وجل امتلأ قلبه به فرحاً وسروراً ويقيناً ، فاذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة عجل له ثواب رياضته .. فانشرح الصدر وانفسح فصارت الآخرة له كالمعاينة ولاحظ الملكوت بتلك العين عين الفؤاد فى فسحة ذلك النور المشرق فى الصدر فرأى شأناً عجيباً من عظمة الله عز وجل جلاله) .

ويتم بالمعرفة ثم الحب تجرد الإنسان عن ذاته فهو من الله .. وبالله .. وإلى الله لقد فنى عن نفسه إذا تحرك بالله .. وإذا نطق فما أجراه الله على لسانه .. فهمه أو لم يفهمه . وإذا نظر أبصر بنور الله حيث ينفذ من أقطار السماوات والأرض . لقد أصبح ممن يقول عنهم الحديث القدسى :

(لايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه :: فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به .. ولسانه الذى يتكلم به .. ويده التى يبطش بها ..) :

وهذه الدرجة التى يصل بها العبد إلى هذه الحال :: هى نهاية ما يمكن أن يصل إليه العبد فى الحياة الدنيا ويرى الصوفية أن هذه الدرجة هى درجة الولاية .. والتى يقول عنها القرآن الكريم :

(أَلَا إِنَّ أَولِيَاءَ اللهِ لَا خَوفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنونَ . الَّذِينَ آمَنوا وَكَانوا يَتَّقونَ . لَهمُ البُشْرَى فِى الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِى الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ) .

(٦٢ – ٦٤ سورة يونس)

ونص الآيات الكريمة يشير بوضوح إلى أن من العباد من اختصهم الله بمنزلة كبيرة ودرجة رفيعة وأطلق عليهم أولياء الله .: تولاهم الله سبحانه وتعالى .: وهؤلاء لاخوف عليهم فى الدنيا من أى سبب ولأى سبب ولا فى الآخرة .. كما أنهم لايحزنون بسبب وصولهم وولاية الله لهم .. لافى الدنيا ولا فى الآخرة .: ووهؤلاء وصلوا إلى هذه الدرجة بإيمانهم بالله .. الإيمان الكامل المطلق .. حيث تمت معرفتهم به .: ولذلك فانهم يتقونه .. حق تقواه .: وهؤلاء :: تحدث لهم البشرى بوصولهم فى الحياة الدنيا .. عن طريق مايرونه ويحسونه :: ويعرفونه :. كما لهم البشرى فى الآخرة بما أعده الله لهم :. وهذا لاشك :: هو أعظم فوز للإنسان .: بل هو كما قال القرآن الكريم الفوز العظيم :

ويقول الصوفية أن الولى هو الصوفى الذى حصل على مقام القرب من الله بفضل قداسته وورعه وفنائه فى محبة ربه ؛؛ ولأن الصوفية هم خاصة المسلمين ؛؛ والأولياء خاصة الصوفيين فيكون الأولياء هم خاصة المسلمين وتكون الولاية أعلى مرتبة روحانية يصل إليها المسلم .

والولى لذلك لايشغله كسب لسبب ولايزعجه سلب لطلب .. قد تجرد من كله وآثر الاتصال بربه .. يعيش بين الناس .. يحاول جاهدا أن يتظاهر أنه منهم ؛؛ وهو فى الحال بعيد عنهم ؛؛ لايحسهم .. ولايراهم ؛؛ وإذا انكشف أمره لهم . . اعتبر أن هذا من ذنب جناه .. أو إثم حاك فى صدره .. وإذا ظهرت على يديه أية كرامات .. اعتبر أن هذا قد يكون ابتلاء .. أو نزوع من النفس إلى هواها .. لذلك فان الولى ؛؛ هو من خاصة الاتقياء اللذى لايعلمهم إلا الله .. لايدعيها ولايعلن عنها ؛ . والولى محفوظ بحفظ الله ؛ ؛ موئيد بنصر الله .. لاخوف عليه ولايحزن بنص الآيات التى نزلت فى شأنهم كما روى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بنص (من آذى ولياً فقد عادانى) ؛؛ كما أن الله سبحانه وتعالى قد أورد فى القرآن الكريم ما يؤكد إكرامه لأوليائه ؛ ؛ ونصرهم ؛؛ ومساعدتهم ؛؛ فقد أنزل الله سبحانه لمريم كل ما هى فى حاجة إليه من غذاء جميل وهى عاكفة تتعبد فى محرابها ؛؛ وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم

(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . قَالَ يَا مَريَمُ أَنَّى لكِ هَذَا . قَالَتْ هوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ) .

(٣٧ سورة آل عمران)

وفى قصة نقل عرش بلقيس إلى مجلس سيدنا سليمان قرر عفريت الجن أنه يستطيع أن ينقل العرش فى فترة تقرب نصف يوم :: بينما أعلن أحد أولياء الله ممن أتاهم الله العلم والمعرفة به :: أنه ينقله فى أقل من لمحة بالبصر . . وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم .

(قَالَ عِفْرِيتَ مِنَ الجِنّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إِلَيكَ طَرْفُكَ) .

(٣٩ سورة النمل)

وولى الله :. لأنه شاهد وكشف :: وجوارحه أصبحت متصلة بالله . . فانه قد يتحدث بما سيقع فى مستقبل الزمان :: دون إدراك منه وعى بأنه يكشف بذلك ستره .: إذ أن الحقيقة أنه يعيش فى عالم أفضل وحياة أوسع :: وأعمق :: وأرحب . . وكل كرامة تقع له فانه يخفيها وينكرها :: ولايتحدث عنها :: لاينشرها . .

ويقول الصوفية أن مرتبة الولاية تتفاوت درجاتها وعلى حسب القرب من الله :: ويتحدثون فى هذه الدرجات عن درجة المحادثة :: وفيها يتم الحديث بين العبد وربه وهؤلاء يسمون أهل الحديث :: وعن

درجة المجالسة :: حيث يجلس العبد فى حضرة ربه .. وهؤلاء يسمون أهل المجالسة ومنهم أهل المناجاة الذين يناجون ربهم دواماً .. أما أعلى درجات الولاية .. وأقواها فهى درجة المشاهدة .. أوبتعبيرهم درجة الفناء . . فناء العبد فى عين الألوهية ..

(إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

(٣٤ سورة الأنفال)

من أقوالهم .. ومن أحوالهم

• قال أحد السالكين فى الطريق :

رأيت شاباً فى بقعة نائية : قد اختلى بنفسه ويذكر الله : وانقطع عن الخلق وماله سوى الخالق : فقلت له بعد أن سلمت عليه :

– يافتى : أنت فى مكان بلامعين ولا رفيق :

قال : وعزة ربى معى المعين والرفيق الذى يقول (وَهُوَ معكُمْ أينَما كُنْتم) : ألا تعلم أنه فوقى بعزته : ومطلع على بعين رعايته : ومعى بعلمه وحكمته : وبين يدى بهدايته .. وعن يمينى بنعمته : وعن شمالى بعظمته :

فلما سمعت منه هذا الكلام قلت له ..

– هل لك فى المرافقة :

قال : هيهات : مرافقتك تشغلنى عن ذكره .. وتبعدنى عن خدمته : وما أحب أن يكون هذا .. ولى ملك الأرض من مشرقها إلى مغربها .

فقلت له :

– أما تستوحش فى هذا المكان ؟

قال لى: أما سمعت قوله تعالى :

(ألَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ) .

ياهذا من كان المولى أنيسه وجليسه كيف يستوحش ؟ .

قلت : من أين تأكل ؟ .

قال : ياهذا غذانى بلطفه فى ظلمة الأحشاء صغيراً . . أفلا يكفلنى : : كبيراً ؟ وقد وعدنى برزقه فى قوله تعالى .

(وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا توعدونَ) .

وقوله (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ..)

فسألته الدعاء فقال :

حجب الله طرفك عن معصيته : : وملأ قلبك بخشيته . : وجعلك من الذاكرين له : : المقربين إليه :

* * *

• قال مالك بن دينار :

خرجت إلى مكة حاجاً : : فبينما أنا سائر رأيت شاباً ساكناً لايذكر فلما جن عليه الليل رفع رأسه إلى السماء وقال :

— يامن لاتنقصه المغفرة : : ولاتضره المعصية : . هب لى مالاينقصك : : واغفر لى مالا يضرك . ثم رأيته بذى الحليفة وقد لبس إحرامه : : والناس يلبون : : وهو لايلبى : . فقلت لماذا لاتلبى ؟ . فقال ياشيخ : : وما تغنى التلبية ؟ . وقد بارزته بذنوب سالفات : : وجرائم مكتوبات : : والله إنى لأخشى أن أقول : لبيك : : فيقول لالبيك : : ولاسعديك لا أسمع كلامك ولاأنظر إليك : : فقلت .

— لاتعنى ذلك .. فإنه حليم .. إذا غضب رضى .. وإذا رضى لم يغضب .. وإذا وعد وفى وإذا توعد عفا .. فقال

— ياشيخ .. أتشير بالتلبية ؟

فقلت : نعم

فبادر إلى الأرض .. واضطجع ووضع خده على التراب .. وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر..وأسبل دمعه .. وقال ..

— لبيك .. اللهم لبيك .. قد خضعت لك .. وهذامصرعى بين يديك ..

فأقام كذلك ساعة .. ثم مضى .. فما رأيته .. إلا فى منى .. وهو يقول :

— اللهم إن الناس قد ذبحوا .. وتقربوا .. إليك .. وليس لى شىء أتقرب به إليك إلا نفسى فتقبلها منى .

ثم شهق . شهقة .. وخر ميتاً ..!

* * *

وقال .. أيضاً رضى الله عنه ..

— خرجت إلى الحج .. وفيما أنا سائر فى البادية .. إذ رأيت غراباً فى فمه رغيف .. فقلت هذا غراب يطير وفى فمه رغيف إن له لشأنا .. فتبعته حتى نزل عند غار .. فذهبت إليه .. فاذا بى أرى رجلا مشدوداً لايستطيع فكاكاً .. والرغيف بين يديه .. فقلت للرجل :

ــ من تكون ومن أى البلاد أنت ؟ وما أمرك ؟

فقال :

ــ أنا من الحجيج .. أخذ اللصوص مالى ومتاعى .. وشدونى وألقونى فى هذا الموضع كما ترى .. فصبرت على الجوع أياماً .. ثم توجهت إلى ربى بقلبى .. وقلت يامن قال فى كتابه الكريم (أمَّن يُجيبُ المُضطرَّ إذا دَعَاهُ) فأنا مضطر فارحمنى .. فأرسل الله إلى هذا الغراب بطعامى .

قال مالك .. فحللته من الوثاق .. ثم مضينا فعطشنا .. وليس معنا ماء .. فنظرنا فى البادية فرأينا ظباءاً حول بئر .. فدنونا منه فنفرت الظباء .. وأقامت غير بعيد .. فلما وصلنا إلى البئر .. كان الماء فى قاعه .. فاحتلنا حتى استسقينا وشربنا .. وعزمت ألا نبرح حتى نسقى الظباء .. فحفرت وصاحبى حفرة .. وملأناها بالماء .. وتنحينا فأقبلت الظباء فشربت حتى رويت .. فاذا هاتف .. يهتف بى ويقول .. يامالك .. دعانا صاحبك وتوجه إلينا بقلبه .. ونفسه فأجبناه وأطعمناه .. وحللنا وثاقه وسقيناه .. وتوكلت علينا الظباء فسقيناها ..

* * *

ناجى ابن زهرة الأندلسى ربه فقال :

ــ ليس العجب من حبى لك وأنا عبد فقير .. ولكن العجب من حبك لى وأنت ملك قدير

* * *

• قال محمد بن الحسين البغدادى .. حججت فى بعض السنين فبينما أنا أدور فى شوارع مكة إذ بشيخ قابض على يد جارية متغير لونها

نحيل جسمها :: على وجهها نور ساطع :: وضياء لامع :: وهو ينادى .. هل من طالب ؟ . هل من زائد على عشرين ديناراً؟ وأنابرىء من كل عيب؟

قال : فدنوت منه وقلت له الثمن عرفناه :: فما العيب ؟ .قال إعلم أنها جارية مهمومة قائمة ليلها صائمة نهارها .. قد ألفت الانفراد والوحدة .. فى كل أرض وبلدة .. فلما سمعت كلامه أحب قلبى الجارية فاشتريتها بالثمن المذكور ورحت بها إلى منزلى فرأيت الجارية مطرقة إلى الأرض ثم رفعت رأسها إلى وقالت :

— يامولاى .. الصغير :: من أين أنت يرحمك الله .؟

قلت : من العراق ::

قالت : أى العراق :: من البصرة أم من الكوفة ؟ :

فقلت لها : لامن البصرة :: ولامن الكوفة :

فقالت : لعلك من مدينة إسلام بغداد ::

قلت : نعم :

قالت : مدينة الزهاد والعباد ::

قال : فتعجبت فى نفسى وقلت من أين لها المعرفة بالزهاد والعباد ثم قلت لها ::

— ومن تعرفين منهم ؟!

قالت : أعرف مالك بن دينار .. وبشر الحافى وصالحا المرى ..
ومعروفا الكرخى ومحمد بن الحسين والبغدادى ورابعة
العدوية .. وشعوانة .. وميمونه ..

فأقبلت عليها وقلت لها .

— من أين لك معرفة هؤلاء ؟

قالت : يافتى كيف لاأعرفهم .. وهم والله أطباء القلوب .. ومن
يدل المحب على المحبوب .

فقلت لها: ياجارية أنا محمد بن الحسين ..

قالت : الحمد لله .. لقد سألت الله تعالى أن يجمع بينى وبينك
يا أباعبد الله .. مافعل الله بحسن صوتك الذى كنت تحيى
به قلوب المريدين .. وتبكى به عيون السامعين ..

قلت : باق على حاله ..

قالت فبالله عليك اسمعنى شيئاً من القرآن ..

فقرأت: بسم الله الرحمن الرحيم .

فبكت ثم قالت : ياأبا عبد الله .. هذا اسمه .. فكيف لوعرفته ..
وفى الجنان رأيته .. اقرأ يرحمك الله ..

فقرأت :(أَم حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحوا السَّيئَاتِ أَن نَجْعَلَهم
كَالَّذِينَ آمَنوا وَعَملوا الصَالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهم وَمَمَاتهم سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ) .

فقالت : ياأبا عبد الله .. ماعبدنا وثناً ؟ ولاقبلنا صنماً .. اقرأ يرحمك الله .

فقرأت : (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) .

فقالت : يا أبا عبد الله : لقد ألزمت نفسك القنوط روح قلبك بين الرجاء والخوف يرحمك الله فقرأت : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) وقرأت أيضا (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) فقالت : وأشوقاه .. إلى لقائه . يوم يتجلى لأوليائه .. إقرأ يرحمك الله .

فقرأت : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ) .

فقالت : ياأبا عبد الله أراك قد خطبت الحور العين فهل بذلت من مهورهن شيئاً ؟ .

فقلت : دليني باجارية فإني مفلس .

قالت : عليك بقيام الليل :. وصيام النهار :: وحب الفقراء .
قلت : مهلا ياجارية ماالذى أبلغك هذه المعرفة ؟ .
قالت : كثرة الاستغفار :: والذكر والقيام والناس نيام .

* * *

قال ذو النون المصرى : سمعت عن عابدة محبة .. من الزهاد .. ذات عمل واجتهاد .. فقصدتها فإذا هى صائمة النهار قائمة الليل .. لاتفتر عن العبادة ولاتمل .. وهى مقيمة فى مكان مهجور .. فلما جن الليل سمعتها تقول : (سيدى لاينام .. ولاينبغى له المنام .. فكيف الجارية تنام .. والخدوم لاينام .. لاوعزتك وجلالك ليس لى فى هذه الليلة منام) .

فلما أصبحت سلمت فردت على السلام فقلت لها :

ياجارية أما تستوحشين هذا المكان ؟

فقالت : يجب أن لايخطر غير الله فى بالك :. ولاتتوهم غيره فى خيالك .. والذى ملأ قلبي من حكمته :. وهيمنى فى محبته ماعلمت فى قلبي موضعاً لغيره :: ولافى جسدى عرقاً إلا وهو ملآن بمعرفته :: فكيف لاأستأنس بذكره وأنا دائماً فى حضرته

فقلت لها :

— لقد أرشدتنى إلى الطريق فاسلكى بى مسالك القوم فإنى فى بحر ذنوبى غريق ::

فقالت : ياذا النون :: اجعل القوى زادك :: والآخرة مرادك :: والزهد والورع مطيتك :: والانقطاع إلى الله تعالى سجيتك

وأبعد هذه الدنيا عن قلبك :: فهو سبب الرجوع إلى ربك
واسلك طريق الخائفين وانزل طريق المذنبين .. تكتب
فى ديوان المحبين .. وتلقى الله وليس بينك وبينه حجاب ..
ولا يردك عنه بواب

قال ذو النون : فأثر كلامها فى قلبى :: وكان سبب رجوعى إلى ربى .

* * *

مما يروى أن رجلا اشترى غلاماً بعد سنوات من دعوة الإسلام
وقد اشترط الغلام على سيده قبل أن يشتريه مما قال له :

— يامولاى .. أريد منك ثلاثة شروط :: أحدها أن لاتمنعنى
عن الصلاة إذا دخل وقتها .. والثانى أن تستخدمنى بالنهار ..
ولاتشغلنى بالليل .. والثالث أن تجعل لى بيتاً منعزلا ..
لايدخله غيرى ..

فقال له ::

— لك ذلك :: فانظر إلى بيوتى وما يتبعها واختر لك ماتشاء ::
فطاف الغلام بها حتى رأى بيتاً خرباً :: فما كان منه إلا أن اختاره

فقال له مولاه ::

— لم اخترت الخراب؟ : والبيوت العامرة كثيرة ؟ .

فقال الغلام :

— يامولاى :: أما علمت أن الخراب يكون مع الله عماراً ؟
وصار الغلام يأوى إليه فى الليل يتعبد لربه :: ويتضرع لخالقه .

وفى ذات ليلة اتخذ مولاه مجلساً للشراب واللهو . . فلما انتصف الليل وتفرق أصحابه . . قام يطوف فى دوره . . حتى وصل إلى البيت الخرب الذى يقيم فيه الغلام . . فإذا فيه قنديل من نور معلق من السماء والغلام فى السجود يناجى ربه وهو يقول :

— إلهى . . أوجبت على خدمة مولاى نهاراً . . ولولاه مااشتغلت إلا فى خدمتك ليلا ونهاراً . . فاعذرنى ياحبيبى . . ياربى .

فلم يزل مولاه ينظر إليه . . ويستمع . . حتى طلع الفجر . . فارتفع القنديل . . والتأم السقف وجاء الرجل زوجته . . مسرعاً وأخبرها بما وقع بصره عليه من العجب . .

فلما كانت الليلة التالية أقام الرجل وامرأته . . على الحجرة . . والقنديل معلق . . والغلام فى السجود والمناجاة إلى طلوع الفجر . . ثم دعيا الغلام وقالا له . .

— أنت حر لوجه الله تعالى . . حتى تتفرغ لخدمة من كنت تعتذر إليه . .

وأخبراه بما رأيا من كراماته على الله تعالى . .

فلما سمع ذلك رفع يديه وقال :

— إلهى . . كنت أسألك أن لاتكشف سترى . . وأن لاتظهر حالى . . فإذا كشفته فاقبضنى إليك . . فخر ميتاً . . رحمه الله

* * *

يحكى عن عبد الله بن المبارك أنه قال :

كنت فى مكة . . فوقع فيها قحط كبير وكان الناس يستسقون بعرفات . . فلم يزدادوا إلا شدة . . فمكثوا على ذلك جمعة . . ثم

بعد الجمعة خرجوا إلى عرفات . . فرأيت فيهم غلاماً أسود ضعيف البدن . فصلى ركعتين . . ثم دعا ربه . . بعدهما . . ثم سجد وقال :

— وعزتك لأرفع رأسي من السجود حتى تسقى عبادك .

فرأيت قطعة من السحاب ظهرت ثم انضم إليها قطع أخرى . . ثم أمطرت السماء كأفواه القرب . . فحمد الله وانصرف . . فاتبعت أثره . . حتى رأيته دخل مكاناً فيه تباع العبيد . . فانصرفت . .

وأصبحت فحملت معي من الدراهم والدنانير ثم جئت إلى دار تاجر العبيد وقلت له :

— إني محتاج إلى غلام اشتريه . .

فعرض على نحو ثلاثين غلاماً فقلت . .

— هل بقي غير هؤلاء ؟ .

قال : بقي غلام معيوب . . لايكلم أحداً . .

فقلت : أرنيه . .

فأخرج الغلام الذي رأيته في الصلاة . . فقلت

— بكم اشتريته ؟ .

فقال : بعشرين ديناراً . . وهو لك بعشرة دنانير . .

فقلت : لا . . بل أزيدك . . واشتريه بثلاثين . .

وأخذت يد الغلام ورجعت . .

فقال لى الغلام :

— ولماذا تفعل ذلك ؟ ..

فقلت : رأيتك بالأمس وقد دعوت الله تعالى ... فأجابك ..
فعرفت كرامتك عليه !

فقال لى: قد رأيت ذلك ؟ ،

قلت : نعم

قال : فهل تعتقنى ؟ .

قال : أنت حر لوجه الله تعالى .

فسمعت هاتفاً لاأرى شخصه يقول :

— يا ابن المبارك .. أبشر فقد غفر الله لك ..

ثم وجدت الغلام قد أسبغ الوضوء .. وصلى ركعتين .
ثم قال :

— الحمد لله ... هذا عتق مولاى الأصغر .. فكيف عتق
مولاى الأكبر ؟ :

ثم توضأ أيضاً وصلى ركعتين ... ثم رفع يده إلى السماء وقال :

— إلهى ... أنت تعلم أنى عبدتك والعهد بينى وبينك أن لا تكشف
سترى ... فحينئذ كشفته فاقبضنى إليك .. فخر ميتاً ..
فكفنته .. غير أنى لم أحسن كفنه .. وصليت عليه ودفنته
فلما نمت رأيت رجلا حسناً فى ثياب حسنة ومعه رجل كبير
كذلك وكل منهما واضع يده على كتف الآخر .. فقال لى :

— يا ابن المبارك . . أما تستحي من الله ؟ .

فقلت له : من أنت ومن معك ؟ .

فقال : أنا محمد رسول الله . . وهذا أبي ابراهيم .

فقلت : وكيف لاأستحي . . وأنا أكثر الصلاة ؟ .

فقال : يموت ولي من أولياء الله تعالى . . فلاتحسن كفنه . .

فلما أصبحت . . أخرجته من القبر . . وكفنته في كفن نقي . . وصليت عليه ودفنته رحمه الله تعالى . .

* * *

قال ذوالنون المصري :

— كنت في الطواف فسمعت صوتاً حزيناً وإذا بجارية متعلقة بأستار الكعبة وهي تقول (أنت تدري ياحبيبي . . ياحبيبي أنت تدري . . ونحول الجسم والروح يبوحان بسري . . ياحبيبي قد كتمت الحب حتى ضاق صدري) فشجاني ماسمعت حتى انتحبت وبكيت . . ثم سمعتها تقول : (إلهي وسيدي ومولاي . . بحبك لي . . إلا غفرت لي) . قال : فتعاظمني ذلك . . وقلت : ياجارية : أما يكفيك أن تقولي بحبي لك . . حتى تقولي بحبك لي ؟ فقالت : (إليك ياذا النون . . أما علمت أن لله قوماً يحبهم . . قبل أن يحبوه . . أما سمعت قوله (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ) .. فسبقت محبته لهم محبتهم له .. فقلت : (ومن أين علمت أنى ذا النون ؟) فقالت (جالت القلوب فى ميدان الأسرار فعرفتك) ثم قالت (أنظر من خلفك) .
فأدرت وجهى .. فلم أدر السماء إقتلعتها .. أم الأرض ابتلعتها ؟ . .

* * *

وقال أيضاً :

« دخلت الطواف فرأيت شاباً حسن الوجه يتوكأ على عصاه وفى وجهه أثر الجوع فأخرجت ديناراً ودفعته إليه فرماه وقال :

— إليك عنى .. فإنى قد اشتريت المقام والقيام مع الله عز وجل .

فقلت : بكم وكيف . .

فقال : كان عندى ثلاثين ألف دينار . تصدقت بها . . وتجردت عنها . . فلن أبيعها اليوم بدينار . .

* * *

وقال : يقول الحق تبارك وتعالى :

(من كان لى مطيعاً كنت له ولياً .. فليثق بى وليحكم على .. فوعزتى لوسألنى زوال الدنيا لأزلتها له) .

* * *

يحكى أن أبا يزيد البسطامى الصوفى أراد الذهاب إلى بغداد يطلب العلم وهو فى حداثة سنه .. فأعطته أمه أربعين ديناراً هى ميراثه من أبيه وقالت له ضع يدك فى يدى وعاهدنى على التزام الصدق

فلا تكذب أبداً : : فعاهدها على ذلك . وخرج مع قافلة يريد بغداد، وفى أثناء الطريق خرج اللصوص ونهبوا كل مافى القافلة ورأوا البسطامى رث الثياب . . فقالوا له : هل معك شيء ؟ : . فقال معى أربعون ديناراً . . فسخروا منه وحسبوا أنه أبله : : وتركوه ورجعوا إلى كهف كان به كبير اللصوص . : ينتظر مايأتون به . : فلما رآهم قال : هل أخذتم كل مافى القافلة ؟. قالوا : نعم : : إلا رجلا سألناه عما معه . . فقال : معى أربعون ديناراً فتركناه احتقاراً لشأنه . : ونظن أن به خبلا فى عقله : . فقال : علىّ به : : فلما حضر بين يديه . . قال : هل معك شيء . : فقال : نعم معى أربعون ديناراً : قال : أين هى .؟ فأخرجها البسطامى : : وسلمها له، فقال كبير اللصوص : أمجنون أنت يارجل ؟ : : كيف ترشد عن نقودك وتسلمها باختيارك ؟ : فقال له : لما أردت الخروج من بلدى : : عاهدت أمى على الصدق . . فأنا لاأنقض عهد أمى : : فقال كبير اللصوص : لاحول ولا قوة إلا بالله . . أنت تخاف أن تخون عهد أمك : : ونحن لانخاف أن نخون عهد الله ! : ثم أمر برد جميع ما أخذ من القافلة : : وقال : أنا تائب على يديك يارجل فقال من معه : أنت كبيرنا فى قطع الطريق واليوم أنت كبيرنا فى التوبة : : تبنا جميعاً إلى الله : : وتابوا وحسنت توبتهم :

* * *

• قال أحمد بن أبى الحوارى :

(دخلت على أبى سليمان الدارانى يوماً وهو يبكى .. فقلت له ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد ولم لاأبكى وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه ، وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وتقطرت فى محاريبهم .. أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى : ياجبريل بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم ، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم .. فلم لاتنادى فيهم ؟ ياجبريل ماهذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه ؟ . أم كيف يجمل بى أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تملقوا ؟ . فبى حلفت أنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا إلى وأنظر إليهم) .

* * *

• دخل هارون على بعض النساك فسلم عليه فقال الناسك :

— وعليك السلام أيها الملك .. أتحب الله .. ؟

قال : نعم

قال : أتعصيه ؟

قال : نعم ..

قال : كذبت والله فى حبك إياه .. إنك لو أحببته لما عصيته .

* * *

• دخل رجل على إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه فقال :

— يا أبا إسحاق .. إنى مسرف على نفسى .. فأعرض على ما يكون لها زاجراً .. ومستنقذاً ..

قال : إن قبلتَ خمس خصال وقدرتَ عليها .. لم تضرك المعصية .. ولم توبقك لذة ..

قال : هات يا أبا إسحاق .

قال : أما الأولى فإذا أردت أن تعصى الله عز وجل فلاتأكل رزقه

قال : فمن أين آكل وكل مافى الأرض رزقه ؟.

قال : ياهذا .. أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه ؟.

قال : لا .. هات الثانية ..

قال إبراهيم: وإذا أردت أن تعصيه .. فلا تسكن شيئاً من بلاده .

قال الرجل: هذه ..أعظم من الأولى ياهذا .. إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن ؟.

قال : ياهذا .. أفيحسن بك أن تأكل رزقه .. وتسكن بلاده وتعصيه؟

قال الرجل: لا .. هات الثالثة .

قال إبراهيم: وإذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه .. وفى بلاده .. فانظر موضعاً لايراك فيه فاعصه فيه .

قال : يا إبراهيم ماهذا . . وهو يطلع على ما فى السرائر ؟ . .

قال : ياهذا . . أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده . . وتعصيه وهو يراك . ويعلم ما تجاهر به ؟ . .

قال : لا . . هات الرابعة .

قال إبراهيم : فإذا جاءك ملك الموت لقبض روحك فقل له : أخرني حتى أتوب توبة نصوحا وأعمل لله صالحاً .

قال : لايقبل مني .

قال إبراهيم : ياهذا فأنت إذا لم تقدر أن ترفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير فكيف ترجو وجه الخلاص ؟ .

قال : هات الخامسة . .

قال إبراهيم : إذا جاءك الزبانية يوم القيامة . . ليأخذوك إلى النار . . فلا تذهب معهم !

قال : إنهم لايدعوني ولايقبلون مني

قال إبراهيم . . كيف ترجو النجاة إذا ؟ .

قال : يا إبراهيم . . حسبي . . حسبي . . إني أستغفر الله وأتوب إليه . .

* * *

• يروى أن عابداً عبد الله مائة سنة فى صومعة منقطعاً مختلياً :: ودخل البلد لزيارة أقاربه وأصدقائه فتعلق به صديق له وأدخله بيته :: وألح عليه بالبقاء معه حتى يساعده فى أمره :: واستمر فى ذلك سبعة أشهر :: وفى ذات ليلة :: سمعه صاحب البيت يصيح صيحة هائلة انزعج لها الحى كله فقال له صاحبه : مالك ؟

فقال العابد الصوفى : كنت نائماً فرأيت رجلا حسن الوجه :: نظيف الثوب :: فقال لى :

— أنا رسول الله :: فأى عيب رأيت من الله ورسوله :: حتى تركت عبادته ؟ :: ارجع إلى صومعتك قبل موتك ::

فخرج العابد :: فى الليل :: فلم يزل يطوف المخاور ويشرب من ماء المطر :: ويأكل من ورق الشجر وينادى :

— إلهى :: بدنى معيوب :: وقلبى مكروب :: ولسانى مُقِرٌ بالذنوب :: فاغفر لى ياغفار الذنوب :: وياستار العيوب :: وياعلام الغيوب ::

فلما دنا من صومعته :: وهم بدخولها :: استمع إلى صوت يملأ عليه نفسه ويقول له :

« توكلت علينا فكفيناك .. وآثرت علينا فتركناك .. وأقبلت علينا فقبلناك .. وفارقت الذنوب فغفرنا لك ورحمناك .. وطمعت فيما عندنا فأعطيناك » .

* * *

لقى ذوالنون امرأة صوفية ببعض سواحل الشام فقال لها :

— من أين أقبلت رحمك الله ؟

قالت : من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

قال : وأين تريدين ؟

قالت : إلى رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله .

* * *

• مر إبراهيم بن أدهم على رجل ينطق وجهه بالهم والحزن فقال له :

— أيها الرجل ، إنى سائلك عن ثلاث فأجبنى .

قال الرجل: نعم

قال إبراهيم: أيجرى فى هذا الكون شيء لايريده الله ؟

قال : كلا

قال : أينقص من رزقك شيء قدره الله ؟ .

قال : كلا .

قال : أينقص من أجلك لحظة كتبها الله لك فى الحياة ؟ .

قال : كلا

قال إبراهيم: فعلام الهم إذن ؟

بينما كان عبد الله ابن المبارك فى طريقه إلى الحج وجد عجوزاً عربية قد اتخذت لها مكانا نائياً فذهب إليها وقال لها :

ـ السلامُ عليك ورحمة الله .

قالت ـ سَلَام قَولاً مِن رب رَّحِيم .

فقال لها : ماذا تصنعين هنا فى هذا القفر ؟

قالت ـ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَه ..

فسألها عن وجهتها

فقالت : (سُبحَانَ الَّذِى أَسرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصى .

فقال لها ـ وكم لبثت هنا ؟

قالت ـ ثَلَاثَ لَيال سَوِيًّا ..

فقال لها ـ وأين طعامك ؟

قالت ـ هوَ يُطعُمنِى وَيَسقِينِ .

فقال لها — وأين ماء الوضوء ؟

قالت — فَلَمْ تَجِدوا مَاءً فَتَيمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا .

فقدم لها بعض الطعام وقال :

— هذا طعام حلال فكلى ..

قالت : ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيلِ .

فقال لها — ليس هذا شهر رمضان ..

قالت — وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

فقال لها — ورخصة الإفطار فى السفر ؟

فقالت — وَأَنْ تَصُومُوا خَيرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعلَمُونَ .

فقال لها — تكلمى بمثل لهجتى ..

قالت — مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ .

فقال لها — ومن أى القبائل أنت ؟

قالت : وَلَا تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا .

فقال لها - سامحينى فقد أخطأت

قالت - لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغفِرُ اللهُ لَكُمْ .

فقال لها - أتدركين قافلتك على نَاقتى ؟

قالت - وَمَا تَفعَلوا مِن خَيرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ .

فقال لها - اركبى

قالت - قل لِلْمُؤْمنين يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِم .

فأناخ الناقة وقال - هيا .

قالت - سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّر لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَه مُقرِنِينَ .

ولما أخذ بزمام الناقة وصاح .

قالت - وَاقْصِد فِى مَشْيكَ واغْضضْ مِنْ صَوْتِكَ .

ولما أخذ يمشى الهوينا يهزج ويحدو .

قالت - فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ .

فقال لها : لقد أوتيت خيرا كثيرا ..

قالت : وَمَا يذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبابِ

ولما قال لها : يا خالة هل لك زوج ؟

قالت - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَلَكُمْ تَسُؤْكُم .

ولما أدركوا القافلة التى ضلت منها سألها :

– هل من ولد أو قريب لك فيها ؟

فقالت – المَال والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا .

ولما سألها – وما عمل أولادك فى القافلة ؟

قالت – وَعَلَامَات وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

ولما سألها أسماء أولادهَا .

قالت – واتَّخَذَ الله إبراهيمَ خَلِيلًا . وَكَلَّم اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا . يا يَحيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَة .

ولما نادى عليهم بأسمائهم لبوا مسرعين فقالت لهم :

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى المَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزق مِّنه .

ولما جاءوا بالطعام قالت لابن المبارك :

كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيةِ .

ولما استوضح ابن المبارك الأمر من أولادها قالوا إن أمهم هذه لا تتكلم إلا بالقرآن منذ أربعين سنة خوفا من الخطأ . واستمساكا بكلام الله . . ومحبة فى الله .

* * *

دخل محمد بن واسع بعد أن تصوف على قتيبة بن مسلم والى خراسان وعليه رداء من صوف وقد بلى الرداء وجف الصوف فقال له قتيبة :

— مايدعوك إلى لباس هذه ؟

فسكت محمد بن واسع ولم يجب .

فقال له قتيبة :

— أكلمك فلا تجيبني ؟

قال :— أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي .. أو أقول فقراً فأشكو ربي ..

* * *

• قال ابن عباد الصيرفي البغدادي : بينما أنا نائم .. إذ قيل لي في المنام : ياعباد .. قم فأغث الملهوف .. فقلت : وأين هو؟ فقيل لي : اركب دابتك .. فهو حيث وقفت . قال : فانتبهت من نومي وقمت من فوري .. وركبت دابتي .. وجعلت أتخلل أزقة بغداد . حتى انتهيت إلى مسجد .. فوقفت الدابة .. فنزلت عنها .. ودخلت المسجد .. فإذا برجل مستقبل القبلة .. فسلمت عليه وقلت : ماقضيتك؟ . قال : إني رجل ذو عيال .. ولم يكن عندهم الليلة شيء .. فجلست هاهنا .. وطلبت من الله الفرج .. قال : فأعطيته مائه دينار .. وقلت له : أنا ابن عباد الصيرفي .. فإذا احتجت إلى شيء فائتني .. فقال : سبحان الله . أترك الذي أقامك من فراشك وأتى بك إلي في ظلمة الليل .. وأذهب إلى غيره ..

لقد علمني فودعته .. وانصرفت .

* * *

قال محمد بن الفضيل :

رأيت شاباً راقداً على الأرض وقد افترش التراب وهو يئن أنيناً شديداً ، فقلت لصاحبي : اعدل بنا إليه فإنه عليل ، فقال : ماهذا بعليل .: هذا فى الباطن من المحبين وفى الظاهر من المجانين - فقلبه بحب مولاه مفتون وهو يدعى بعبيد المجنون .. فتقربت إليه ، فإذا هو شاب نحيف الجسم وعليه جبة صوف بالية ، وهو يقول : عجباً لمن ذاق حلاوة محبتك كيف ينقطع عن خدمتك؟ثم لم يزل يردد ذلك حتى غشى عليه ، فقلت لصاحبى : والله ما المجنون إلا الذى لم يصل إلى هذا المقام .. فلما أفاق من غشيته قال : مابالكم تنظرون إلى ؟ قلنا : لعل دواء يشفى من الداء الذى تجده . قال : إن الذى ابتلى بالداء عنده الدواء . . ولكن الذى يريد أن يتداوى يحتمى . . قلت : بماذا ؟ قال بترك الحرام وبجنب الآثام . . ومراقبة الملك العلام والتهجد بالليل والناس نيام .

* * *

قال فتحى الموصلى :

رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشى وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد على السلام . . فقلت : إلى أين ؟

فقال : إلى ربى عزوجل .

فقلت : بماذا تحرك شفتيك ؟

قال : أتلو كلام ربى .

قلت : إنه لم يجر عليك قلم التكليف .

قال : رأيت الموت يأخذ من هو أصغر منى سناً .

فقلت : خطاك قصيرة .. وطريقك بعيدة ..

فقال : إنما عليّ الخطى وعليه البلاغ .

فقلت : أين الزاد والرحلة ؟ ..

قال : زادى يقينى .. وراحلتى رجلاى ..

قلت : أسألك عن الخبز والماء ..

قال : ياعماه .. أرأيت لو دعاك مخلوق إلى منزله ، أكان يجمل بك أن تحمل معك زادك ؟

قلت : لا ..

فقال : إن سيدى دعا عباده إلى بيته واذن لهم فى زيارته .. فحملهم ضعف يقينهم على حمل أزوادهم ، وإنى استقبحت ذلك .. فحفظت الأدب معه .. أفتراه يضيعنى ؟

فقلت : كلا وحاشا ..

ثم غاب عن بصرى .. فلم أره إلا بمكة ..

فلما رآنى .. قال : أنت أيها الشيخ .. هل تحولت من ذلك الضعف .. إلى اليقين ؟

* * *

هل يمكن أن نسلك الطريق الآن ؟

وكيف ؟

إذا ماذكر التصوف سأل السامع أوالقارئ : هل يمكن لإنسان هذا العصر أن يتصوف ؟ : : وهل يمكن الجمع بين مشاغل الدنيا ومتطلبات السعي فى الحياة والجهاد فى سبيل العيش وبين واجبات التصوف ؟ أم ترى لابد من الانسلاخ من الدنيا والعزوف عن الحياة والاعتكاف عن العالم حتى يدخل الإنسان فى زمرة المتصوفين ؟ : :

إن كل مسلم ليؤمن تماماً أن له فى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة : : فذلك ما أمرنا به القرآن الكريم فى النص الشريف :

(لَقَد كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرجو اللهَ وَاليَومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا) .

(٢١ سورة الاحزاب)

وماترك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا وما تخلف عن ركبها إطلاقاً : . بل شارك فيها بكل طاقاته وجاهد لها بكل قدراته فعمل وسعى : : وتزوج وأنجب : : وقاتل وهاجر : : وأوضح أسس الدين وأرسى قواعد الدولة : : اجتمع بقادة الحروب ووضع خطط السلام : : باشر شئون المال وحدد أنصبة الدخل والإنفاق . . ودعا بدعوة القرآن الكريم الذى يقول :

(وَابتَغِ فيما أَتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدّنيَا) .

(٧٧ سورة القصص)

بل كان أول من عمل بها : :

فى مختلف شئون حياته .. وفى كل أوقاته .. كان ينشد العلم ويتخذ السبيل إليه .. فإذا حان وقت العبادة اجتهد فيها .. فأداها على أحسن وجه وأتم وأكمل حال .. كان يرعى شئون الدولة .. ويشرف على أمور الأمة ومن تحتويهم ، فإذا وجد فراغاً من أمور دنياه ودنياهم تأمل وتفكر فى آيات الله .. وحتى يأخذ من الدين والدنيا كل بالقدر الواجب .. نظم أوقاته .. حتى الخلوة التى لابد أن يخلو فيها الإنسان بربه حدد لها المواقيت .. منها ماعرفت عنه وظهرت عليه .. حتى قبل البعثة حيث كان يتحنث فى غار حراء شهراً كل عام .. وبعد الرسالة حيث كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان .. ومن مواقيت خلوته ماكان سرها عند الله .. فلا يعرفها أحد .. ولاشك أنها كانت بضع ساعات كل ليلة طالت أوقصرت والله أعلم ..

وإذا احتج من يقول إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يختلف عن عامة البشر بما فضله الله به واصطفاه له .. بالخلق الكريم والرسالة العظيمة .. فلا سبيل للاحقته .. ولو أن الإسلام يأمرنا بأن نتابع خطاه ونترسم طريقه .. فإن فى صحابته صلى الله عليه وسلم والتابعين .. بل فى كل طبقات المسلمين الأول مايؤكد أن التصوف لم يمنعهم عن التفوق فى شئون الدنيا وسيادتهم غيرهم .. ونبوغهم فى كل أمور الحياة وتميزهم على من سواهم .. بالعلم والجاه والمال .. فلا يعطل التصوف الإنسان عن مباشرة أمور حياته على خير وجه وأحسن حال ولاتعيق أمور الحياة والسعى فيها الإنسان عن التصوف ..

فهذا سيدنا أبوبكر .. يتولى أمور الخلافة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فيباشر كل أمور المسلمين ويشرف على شئون الدولة . . ويصبح بذلك أول من تقع على عاتقه مسئوليات حكم الأمة والذود عن الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولم يحرمه هذا عما عرف عنه . . فهو يبكى عند تلاوة القرآن الكريم أوالاستماع إليه . . وهو يخلد فى ليله إلى الوحدة مع الله . . والانفراد بعبادته . . فيفتح الله عليه أبواب العلم والمعرفة . . وطاقات الحس والمشاهدة . .

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب الذى تظهر على هيئته أبهة الحكم وصلابة الحاكم . . يذهب للاجتماع بأمراء الأعداء ممسكاً بزمام دابته . . لاتميزه عن تابعه فى مظهره أى شىء . . ويسأله أهله ليقول نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ولن نطلب العزة من غيره أوبغيره . . كان عادلا فى أحكامه . . عادلا فى أوقاته . . يعطى للدين وقته . . وللدنيا وقتها . .

وهذا سيدنا سعد بن أبى وقاص .. الذى كان يفزع الأعداء صوته فى القتال . . يشيخ ويهرم . . ويصبح مستجاب الدعوة .. ويُسأل: لقد عشى بصرك ياسعد .. وتدعو الله للناس فيستجاب لك، أما دعوته لبصرك ؟ فيقول: رضائى بقضاء الله أعز علىّ من بصرى .

بل هذا سيدنا عمر بن عبد العزيز والذى جاء فى سيرته على ماروواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه عما كان عليه قبل أن يلى الخلافة ما نصه (وكان عمر بن عبد العزيز من أعظم أموى ترفهاً وتملكاً . غذى بالملك ونشأ فيه لايعرف إلا وهو تعصف ريحه فتوجد رائحته

فى المكان الذى يمر فيه .. ويمشى مشية تسمى العمرية :: فكان الجوارى يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها ؛. وإنه ترك كل شىء كان فيه لما استخلف غير مشيته :: فإنه لم يستطع تركها فربما قال لمزاحم : ذكرنى إذا رأيتنى أمشى فيذكره.فيخلطها.ثم لايستطيع إلا أياها فيرجع إليها . : وكان يسبل إزاره حتى ربما دخلت نعله فيه فيتحامل عليه فيشقه ولايخلعها ويسقط أحد شقى ردائه عن منكبه فلايرفعه وتنقطع نعله فلايعرج عليها . . وربما لحقه بها المملوك فيعنفه :: ويطبع بخاتمه فتتسخ الطينة من العنبر . . فلم يزل على ذلك حتى ولى الخلافة فزهد فى الدنيا ورفضها) فلما ولى الخلافة كان أول ما فعله ماجاء بالنص فى السيرة (ولما دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز فقربت إليه المراكب فقال : ماهذه ؟ . . فقالوا : مراكب لم تُركب قط يركبها الخليفة أول مايلى :: فتركها وخرج يلتمس بغلته وقال : يامزاحم ضم هذه إلى بيت مال المسلمين :: ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون فقال : ماهذه ؟ فقالوا : سرادقات وحجرلم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول مايلى ، قال : يامزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول مايلون فجعل يدفع ذلك برجليه حتى يفضى إلى الحصير :: ثم قال : يامزاحم ضم هذه لأموال المسلمين :: وبات عيال سليمان يفرغون الأدهان والطيب من هذه القارورة إلى هذه القارورة ويلبسون مالم يلبس من الثياب حتى تتكسر ، وكان الخليفه إذا مات فما لبس من الثياب أومس

من الطيب كان لولده : ومالم يلبس من الثياب ومالم يمس من الطيب فهو للخليفة بعده . فلما أصبح عمر قال له أهل سليمان : هذا لك . . وهذا لنا . . قال : ماهذا ؟ . . وما هذا . . ؟ قالوا : هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ومالم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده وهو لك . . قال عمر : ماهذا لى . . ولالسليمان . . ولالكم ولكن يامزاحم ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين) ونهى عن القيام له واشترط لصحبته شروطاً بالنص الوارد فى السيرة (ولما ولى عمر ابن عبد العزيز قام الناس بين يديه فقال : يامعشر الناس إن تقوموا نقم وان تقعدوا نقعدفإنما يقوم الناس لرب العالمين . إن الله فرض فرائض وسن سنناً من أخذ بها لحق . . ومن تركها محق . . ومن أراد أن يصحبنا بخمس : يوصل إلينا حاجة من لاتصل إلينا حاجته . . ويدلنا من العدل إلى مالا نهتدى إليه . . ويكون عوناًلنا على الحق . ويؤدى الأمانة إلينا وإلى الناس . . ولايغتب عندنا أحداً . ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا والدخول علينا) وحث على التعهد بأداء فروض الإسلام والأخذ فى أسباب التصوف فكتب إلى كل معاونيه ماجاء فى السيرة بالنص (وكتب عمر بن عبد العزيز : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد . . أما بعد فإن عرى الدين وقوام الإسلام الإيمان بالله وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة وحافظ على أوقات الصلوات فإن وقتها المجيرة بالظهر . . وصلاة العصر والشمس بيضاء نقية لم يدخلها صفرة : : وصلاة المغرب لفطر الصائم ولا تصلين العشاء حتى يذهب شفق الأفق وهو البياض : : فإذا ذهب فصلها فيما بين

ثلث الليل وما عجلتها بعد ذهاب بياض الأفق فهو أحسن وأصوب فإن من تمامها وإصابة وقتها انتظار ماوصفت لك فى كتابى هذا منها ثم صلِ الفجر بغلس وحافظ على ذلك فإن المحافظة عليها حق واصبر نفسك على ذلك واجتنب الأشغال عند حضور الصلوات واكتب بذلك إلى عمالك بالمدائن والقرى وحيثما كانوا إذ (إن الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى المؤْمنينَ كِتاباًموقوتاً)و (إنالصَّلاةَ تنْهى عَنِ الفَحْشَاءو المنكَرِ ولَذِكْرُ اللهِ أكْبَر) فإنه من بضيع الصلاة فهولماسواهامن شرائع الإسلام أشد تضييعاً . ثم أكثر تعاهدَ شرائع الإسلام . ومر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك . . وليتحدثوا به فى مساجدهم والسلام عليك) .

وتفيض سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز بشواهد وأدلة متصوفة . . فهو إذا ما فرغ من أمور دنياه ودنيا المسلمين اختلى بنفسه فى الليل . . يذكر الله . . ويفيض دمعه . . لم تمنعه مظاهر الحكم . . ومسئوليات المنصب . . من أن يكون من أئمة المتصوفين . . ولم تمنعه تصوفه من أن يكون من أعظم الخلفاء . . ومن أكبر القادة والأمراء .

ولوتركنا هذه الطبقة وبحثنا عما بعدها . . لوجدنا تمسك المسلمين فى مختلف العهود بالأخذ فى أسباب التصوف . . وما منعهم التصوف من الزيادة فى العلم والسيادة فى الحكم . . والأخذ بكل أسباب الحياة . . فليس التصوف بالانقطاع عن أمور الدنيا والزهد فى الحياة . . وليس الجهاد فى العيش بمانع الأخذ فى أسباب التصوف .

إن التصوف إدراك للحقيقة . . حقيقة كل شيء . . ثم يتصرف الإنسان على ضوء هذه الحقيقة . . فالله سبحانه وتعالى موجود فى كل الوجود . . موجود عند كل نفس . . موجود فى كل لحظة . . وفى كل حين . . وكل أوان . . هو الموجودوغيره أياكان بلا وجود . . وهو جل شأنه . . الخالق القادر الرحمن الرحيم الرزاق العليم . . هو كل شيء وغيره مهما كان فلاشيء . . فهل نتصرف فى حياتنا تصرف من يعلم ويعرف . . أم ترى أننا لانعلم ولانعرف . . أم أننا فى حاجة إلى وعى وتعميق وحسن إدراك . . لما نعلم ونعرف ؟ . .

إن علومنا ومعارفنا حالياً تزيد لاشك عن علم ومعرفة الأولين . . وسبيل العلم والمعرفة ميسرة ومحسنة ومتاحة الآن عما كانت عليه مئات المرات . . فكيف تفوق الأوائل وسبقونا فى الطريق ؟ . . بل وكيف ضللنا نحن الطريق؟.. إن ما نحن فى حاجة إليه بالنسبة للعلم والمعرفة هو التدبر والتأمل والتعمق . إن السلف كانوا إذا رأوا تباشير الفجر تدق أبواب السماء لتعلن مولد نهار جديد ولتسحب جحافل ليل بهيم . . قالوا : سبحان الله . . ما أعظم قدرتك . . تبدل بإرادتك الليل والنهار . . وما اختلف الليل وما عصاك النهار . . ثم تأملوا وتفكروا . . وذكروا الله . . لقد استجابوا لما وجه القرآن الكريم نظرهم إليه وأمرهم به فى النص الشريف :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى

جُنوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبحَانكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) .

(١٩١ سورة آل عمران)

ونحن نعلم أكثر مما علموا .. ونعرف أكثر مما عرفوا :: نعلم بالأدلة العلمية والشواهد المادية أن الأرض كرة معلقة فى الفضاء وأنها دائماً تلف :: وأبدا تدور :: حول نفسها :: وحول الشمس وأن الشمس نجم ملتهب :: شديد الحرارة :: ونحن منها على بعد مناسب تماماً لحياتنا :: نتعلم كل ذلك فى مختلف مراحل التعلم فلا نتدبر الأمر :: ولايثير فينا أى تأمل وتفكر عن عظمة الخلق :: التى تشير إلى قدرة الخالق فنسبحه :: إن الأوائل كانوا إذا رأوا النبتة الحية الزاهية اللون :: تخرج من الأرض الميتة السوداء :: قالوا: سبحان الله :: سبحان من أخرج الحى من الميت :: ونحن فى دراستنا نعلم أن الحبة فى باطن الأرض تنفلق بقدرة الله لتخرج منها الجذور إلى أسفل والساق إلى أعلى، ونعلم كيف تنقسم الخلية وكيف تنعقد الثمار وفى كل خطوة من هذه مئات الشواهد على قدرة الله فى الخلق والإبداع :: وما تذكر الطالب أبدا فى دراسته هذه القدرة الخلاقة وما ذكره أستاذه أبدا بها :: وكان رجال السلف الصالح إذا رأوا مريضاً يشفى :: قالوا: سبحان الشافى :: وإذا رأوه يموت :: قالوا: سبحان الحى الذى لايموت :: ونحن فى دراستنا نرى القلب كيف يخلق :: من خلية لاترى :: وكيف بلا تدخل من الإنسان أومن أى قوة أخرى :: يضرب :: فى لحظة محددة لتبتدئ حياة الإنسان .. وكيف يقف فى

لحظة مقدرة لتنتهى حياة الإنسان .. ونتابع كيف تتلاحم أجهزة الإنسان وكيف تتساند لتدفع عنه المرض .. وكل محاولات الطب إنما لتنشيط قوى الإنسان الكامنة فيه .. فلا نتأمل ذلك .. ولا نحاول أن نقف على ما تشير إليه هذه من شواهد على وجود الله .. وأدلة على جميل صنعه وحسن تدبيره .. ولانجد من يذكرنا به .. وهكذا فى كل ما نتعلمه .. وفى كل ما يصل إلينا من معارف .. للذلك فإن أول ما يجب علينا ونحن نتعلم .. أونعلم .. أن نستخلص مما نتعلم أونعلم العبرة والدرس .. التأمل والتفكر .. فكل علم .. مهما كان .. وكل معرفة .. مهما قلت .. إنما غايتها توجيه الإنسان للوقوف على الحقيقة الكبرى .. الحقيقة الأولى .. الحقيقة المؤكدة فى هذا الوجود .. وجود الله ووحدانيته .. وطالما وصل الإنسان إلى هذه المعرفة .. فقد وصل إلى الحقيقة .. ووصل إلى طريق التصوف .. فعلى الإنسان أن يسعى .. لأن يتعلم .. وأن يعرف .. وأن يبحث .. بقدر طاقته .. وعلى قدر إمكانياته .. وأن يحاول أن يستخلص مما يتعلم الحقيقة .. إن علوم الذرة وانشقاقها والوقوف على الطاقات الرهيبة التى تنطلق منها بهذا الانشقاق وكانت محبوسة مقيدة .. وعلوم الفلك ورصد النجوم والكواكب .. وعلوم التشريح ووظائف الأعضاء هى فى الحقيقة آيات واضحات على وجود الله وقدرته ولايملك العلماء كلما توغلوا فى هذه العلوم إلا أن يعترفوا بأنها تزيدهم إيماناً .. وتعمق من معرفتهم بالله الواحد الأحد .. وكل العلوم الأخرى حتى البدائية منها .. مثل مجرد تعلم القراءة والكتابة يجب أن تحمل لصاحبها الإيمان

بالله .: والوقوف على بعض قدرته :: وآثار عظمته :: فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل للإنسان لساناً ينطق به :: وعقلا يفهم به :: وأوحى إليه بسبيل التعلم .: فكيف لولم يلهمه وسيلتي التعلم: القراءة والكتابة.. وعاش الإنسان جاهلا .: أكانت تستمر البشرية :: وتقوم الحياة؟.. وهكذا أوجب على كل إنسان مهما كان قدره فى الحياة :: ومهما كان حظه من العلم .: أن يسعى لمزيد من العلم والمعرفة :: وأن يحاول أن يستشف مما يتعلم قدرات الله وعظمته وحسن تدبيره وجميل صنعه فهل يعطل هذا العلم الإنسان فى حياته :: أم أنه يدفعه إلى التقدم ويعاونه على السعى ؟ .

أما العبادة اليومية كالصلاة :: والسنوية كالصوم :: والموسمية كالزكاة . . والفردية كالحج .: فإن الحياة مهما كانت زحمتها .. فإنها لاتعوق الإنسان إطلاقاً عن أدائها :: والاجتهاد فى تمام إقامتها ..

وطالما اتجه الإنسان بقلبه إلى الله فى صلاته :: وآمن بأنه يقف بين يديه وأنه قد حل بحضرته :: فإنه تتفتح له شواهد رحمته :: ودلائل عظمته وتضفى على الإنسان راحة وسعادة وتمنحه قدرات وطاقات تجعله أكثر اجتهاداً وأقوى جلداً .

والخلوة مع الله :: أمر يجب على الإنسان أن يتعوده :: كثيراً .. وطويلا :: فما أطول أوقات الفراغ اليومية والأسبوعية والسنوية .. وإذا تدبر الإنسان حاله :: وجد أنه يمضى أكثر من نصف حياته .. خالياً من عمله :: وأنه يبحث فيما يشغل هذا الوقت :: فتراه :: إما نائماً :: أو مستلقياً بلانوم :: وبلاهدف :: يفكر فيما يعرضه عليه

الشيطان من لهو الدنيا وزائف الحياة . . أو يحاول قتل وقته . . بجلوسه على مقهى . . أو ارتياد ملهى . . أو البحث عن صديق . . أو زميل يدعوه للسمر . . فهو قد مل الوحدة . . ولديه من الوقت ما يريد أن يصرفه . . فلا يجد إلا لغو الحديث . . وباطل القول . . يتتبع عورات الناس . . ويسب الغائب . . ويصخب مع الحاضر . . وإن صمت فإنه يستمع لما يفحش به غيره . . وتمضى الساعات . . وتمر الأيام . . وتتعاقب السنون . . وهو فى أوقات فراغه . . ينتقل من سيء . . إلى أسوأ . . ومن شر . . إلى ما هو أشد . . فهلا استفاد الإنسان لحياته الدنيا ولآخرته . . من بعض أوقات فراغه . . فصرفها فى التأمل . . والتذكر . . والتدبر . . ولجأ فيها إلى الاعتكاف . . يتجه فيها بكل حواسه إلى الله . . ويزيل من نفسه . . وعقله . . كل معوقات الاتصال . . فيجده قد شارف ما يشاء . . واتصل بمن يدعوه دائماً . . إلى الوصل . . ويساعده ويعاونه على الوصول . . إن كل إنسان مهما كانت درجة مشغولية الحياة عنده . . ومهما كانت مسئولياته وزحمة العمل عنده . . فإن لديه بعض الوقت اليومى . . حتى ولو كان ذلك قبيل النوم . . يمكنه أن يختلى بنفسه فى تأمل وتفكر . . وذكر لله . . ولو للحظات . . وإذا كان علم النفس . . وعلوم الصحة الوقائية والعلاجية قد اتفقت كلها على أن الواجب على كل إنسان . . لاسيما هؤلاء الذين يضطلعون بعمل أكثر . . أن يخرجوا من هذا العمل وزحمته . . لدقائق . . كل بضع ساعات . . وإن شاء الأحسن فكل ساعة . . يستروح فيها نفسياً . . ويهدأ ذهنياً . . وما أفضل أن يصرفها

الإنسان .. فى ذكر الله .. وتدبر قدرته .. وفى عطلة الأسبوع ألا يمكن الإنسان أن يصرف نصفها أوربعها .. أوحتى ساعة منها .. فى هذا الاعتكاف .. للذكر .. وكذلك فى عطلة العام .. فهل يعيق ذلك الإنسان عن عمله .. وهل يمنعه ذلك من التفوق فى الحياة ؟ إن تأخر الإنسان دائماً فى نومه ليلا بسبب اللهو .. واللعب .. وهذا يحرمه متعة النهوض مبكراً .. وما أجمل ساعات التأمل والتدبر والذكر قبيل أن تشرق الشمس .. ومتابعتها فى بداية إشراقها .. وما أروع الذكر .. وأعمق الإيمان .. فى هذه الأوقات ولايعنى ذلك أن هذه أوقات الذكر فقط . فإن ذكر الله لابد أن يصاحب الإنسان فى نومه ويقظته .. فى عمله وراحته .. فى جوعه وشبعه .. فى نهاره وليله .. فى ساعاته ودقائقه .. فى ثوانيه ولحظاته .. يجب ألا يعزب عن العقل والقلب والوجدان ذكر الله .. أبدا .. وإذا كنا نسعد الآن .. لمن يذكرنا بالله .. فى خضم حياتنا .. فإنه فى الماضى .. دخل صديق على صديقه وهو يحتضر فقال له : يا أخى اذكر الله .. يريد أن يذكره فى لحظات الانتقال.. بالله فقال له أخوه المحتضر : « ومتى غاب عنى لأذكره ؟» .. فعلى الإنسان أن يذكر الله .. قائماً أوقاعداً أو على جنبه وأن يكون باللسان والقلب هو آخر ما تغمض عليه عين النائم .. وأول ما يصحو عليه النائم .. وألا ينى لحظة عن الذكر .. فما من إنسان إلا هو ينشغل بأكثر من موضوع .. ويفيض عقله بأكثر من فكر .. فليكن الله .. قبل ذلك كله .. وبعده كله .. فهل ذكر الله يحول بين الإنسان والسير فى الحياة والجهاد فى سبيل العيش أم ترى يساعده ويعاونه ويشد من أزره ؟ .

وإذا كان الإنسان يحب ولده .. ويحب ماله .. ويعشق زوجته أوصديقه .. ويحب أباه وأمه .. ويحب من يعالجه من مرضه .. ومن قدم له الجميل .. ومن عاونه على مكسب .. وساعده فى قضاء حاجة .. ويحب كل من ساهم فى تيسير أمره .. وتدبير حاله .. يحب من يجود عليه .. بعطاء .. رغم أن العطاء ليس منه .. بل يحب الإنسان.. نفسه .. حباً من فرطه لايوصف.. ومن عمقه .. لايتصور.. ترى كيف يكون حب الإنسان .. لمن أوجد له ذلك .. فخلقه .. وأقام نفسه من العدم .. وخلق له الولد .. ومنحه المال .. وأحيا له زوجته .. وأوجد له أمه وأباه .. وهو الذى يشفيه .. وكل ما وصل إليه من مكسب أوعطاء .. أوتوفيق فى الحياة .. وتدبير فى أمرها فمنه .. هو.. ترى كيف يجب أن يكون حب الإنسان له ؟ وهل منع حب الإنسان لولده أوماله أولغيره من ممارسة الحياة .. والقيام بشئونها أم ترى يدفعه هذا الحب .. إلى مضاعفة العمل والاجتهاد .. فهل يمنع حب الإنسان لربه .. من السعى فى الحياة والجهاد لها .. أم يدفعه إلى المضى فيها .. بقلب مطمئن ونفس راضية ؟

وهكذا فإن طريق التصوف سهل وميسر لكل إنسان .. فى كل عصر وأوان .. وواجب على كل إنسان أن يسلكه .. فى كل جيل وكل زمان ..

وإن هؤلاء .. الذين ساروا فى الطريق .. والذين قد عزموا على المضى فيه .. بعلم ومعرفة وسعى وجهاد وذكر ومحبة .. هم الذين

يفوزون فى الدنيا .. والآخرة .. لأنهم حزب الله وهم الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى ونسأله جل شأنه أن نكون أنا وأنت منهم ..

(أُولئِكَ كَتَبَ فِي قلوبِهِمُ الإيمَانَ وَأَيَّدَهم بِرُوح مِنه وَيُدخِلهم جَنَّاتٍ تَجرى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهم وَرَضوا عَنهُ أُولئِكَ حِزبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزبَ اللهِ هُم المُفلِحُونَ)

(٢٢ سورة المجادلة)

صدق الله العظيم

الشعب
[illegible] شارع قصر العيني بالقاهرة
التليفون [illegible]

الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة

تليفون [illegible]



ثقافة وعلوم إنسانية لكل الشعب



الثمن ٢٠٠ قرش